الفصل الرابع

مع تَوهُّج الجاهلية وتَموُّج الإسلام

كان العربُ في الجاهلية يعيشون قبائل متنابذة، لا يعرفون فكرةَ الأُمَّة وإنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من أواصر النسب،وكانت كلُّ قَبيلة تتعصَّبُ لأفرادها تعصباً شديداً، فإذا قُتل أحدُ أفرادها هَبَّت القبيلةُ كلُّها للأخْذ بثأره، وكان الثأرُ أحياناً يَجُرُّ ثأراً ويستمر في سلسة لا تنتهي من الحروب والمعارك المتعاقبة، ولما جاء الإسلام أخذَ يُضْعفُ من شأن التعصُّب للقبيلة ويحلّ محلَّه فكرةَ الأمة، قال تعالى: ﴿**إنَّ هذه أُمَّتُكُم أُمةً واحدةً وأنا رَبُّكُم فاعْبُدون**﴾ [الأنبياء: ٩٢] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي جاءت في هذا المعنى وغَرَسَتْ في نفوسِ العرب فكرةَ الأُمَّة،فصارت الرابطةُ الدينيةُ لا الرابطةُ القبلية هي التي تجمعُ بين الناس، وصار حق الأخذ بالثار ليس من حَقّ القبيلة بل من حقِّ الدولة، وأصبح عقاباً بالمثل وبصورة عادلة، بل أصبح من واجب القبيلة أنْ تقدِّم القاتلَ لأولي الأمر حتى ينالَ جزاءه. والإسلامُ نهى عن العصبية القبلية وأعلنَ أن الناس سواسيةً لا يتفاضلون إلا بتقوى الله، قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الناسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجعَلْنَاكُمْ شَعُوباً وقبائلَ لِتعارَفُوا إنّ أكرمَكُم عندَ اللهِ أتقاكم**﴾[الحجرات : ١٣].

فالإسلامُ هَدَمَ الوحدة القبليةَ هَدْماً، وكرهَ التفاضُلَ بشرف القبيلة أو شَرَفِ الجنْسِ، وبين أنَّ التفاضلَ بين المسلمين لا يكون إلا بتقوى الله وطاعته وتنفيذ أوامره، والإسلام أوجبَ الطاعةَ لله، والطاعةَ لرسول الله، والطاعةَ لأولي الأمر في الأُمَّة ما أطاع وليُّ الأمر أوامرَ الله، قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم**﴾ [النساء : ٥٩].

ولا شَكَّ أنَّ تعاليمَ الإسلام رفعَتْ المستوى العقليَّ للعرب إلى درجةٍ كبيرة فهذه الصفاتُ التي وصفَ الإسلام بها الله سبحانه قد نقلت العربَ من عبادة الأصنام والأوثان وما يقتضيه ذلك من الانحطاط في النَّظَر والإسْفاف في الفكر إلى عبادَة الله من وراء المادة ﴿**لا تُدْرِكُه الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ**﴾ [الأنعام : ١٠٣]. فكان الإله عند أكثرهم إله القبيلة، وإن اتَّسعَ سلطانُه فإله قبائل أو إله العرب، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبِّر الكون، وبيده كلّ شيء، وعالماً بكلِّ شيء. فاستطاع العربيُّ بهذه

التعاليم أنْ يَرْقَى إلى فهم إلهٍ لا مادة له، واسع السلطان، واسع العلم ،وأنْ يَفْهَم أن الإسلامَ هو خيرُ الأديان وخاتمُها[1].

والأساس القبلي عاد في رأي الإسلام منكراً نَهى عنه الرسولُ ﷺ، حيث أنكرَ دعوةَ الجاهلية والتشبُّثَ بعصبيتها الحمقاء، وحَلَّ مَحلَّ هذه الحمية أساسٌ آخرُ عامٌّ وعريضٌ هو الإسلام أو الدِّينُ الإنسانيّ الجديد ووحدته العربية أولاً، ثم البشرية آخراً، ولذلك أخَذَ الاعتبارُ القبليُّ يتضاءلُ شيئا فشيئاً ليحلَّ محلَّه اعتبارٌ عربيّ ثم إنسانيّ، وقد لاقي النبيُّ ﷺ صعوباتٍ كُبْرى وكثيرةً في نَقْلِهم من عقليتهم الجاهلية إلى عقليتهم الإسلامية، فقد أخذتْ قريشٌ تجمعُ أمرَها، ومن لَفَّ لَفَّها من قبائل العرب لحرب الرسول ﷺ ومَنْ آمنَ به، وذلك في سبيل دينِ أجدادِهمُ القديمِ، فأثاروها حرباً على الدِّين الجديد ودولَته، كما قام اليهودُ والنصارى في وجهِ هذا الدِّينِ الجديدِ بالسيفِ واللسانِ وبكلِّ ما استطاعوا من قُوَّةٍ.

وكان الرسولُ صلوات الله عليه يريد أن يَنهضَ بتوحيد القبائلِ العربية تحت لواء هذا الدِّينِ، ولذلك لم تخلُ الدَّعوةُ الإسلامية من حروب وغزواتٍ اضطر إليها الرسولُ ﷺ لتقويم هذه الأُمة وإنقاذها من جهالتها، يقول الأستاذ أحمد الشايب: " إنّ الرسول عليه السلام كان ينهضُ بتوحيد القبائلِ العربية تحت لواء الدِّين أولاً، فيخضع العرب لفكرة الجنسِ ويصبحونَ أمةً عربيةً لها وحدَتُها العنصرية والدينية، واللغوية والشرعية، ويخضعون لرئيسٍ واحدٍ كان هو الرسول ثم خلفاءَهُ من بَعْدِه، وهذا وحدَه كاف للقول بأن العربَ إبّانَ ظهورِ الإسلام كانوا قادمين على تكوينِ دولةٍ عربية لها مقوماتُ الدولة الناشئة أو الناهضة لا شكّ في ذلك، وأن جميعَ الجهودِ التي تُبْذَلُ في هذا السبيل لا تخلُو مطلقاً من طَابعٍ سياسي يُؤَثِّر في مجراها وفي غايتها معاً. ومما يستأْنَسُ به في ذلك أنَّ الدعوةَ الإسلاميةَ لم تخلُ من حروب وغزواتٍ اضطر إليها الرسولُ لتقويم هذه الأُمَة وانتشالها من جهالتها وردِّها إلى نظامٍ مدني مُهَذَّب يلائُم هذا الدِّينَ ويتَّخذُ من تعاليمه وسيلةَ الإصلاحِ البشري العام"[2].

وكانت هُذَيْل كغيرِها من قبائلِ العربِ تَتربَّصُ بالرسول الدوائر، أضف إلى ذلك اليهود الذين كانوا يحقدون عليه ويتمنون هزيمتَه، وكثيراً ما حاكوا ضدَّه المؤامرات

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص٧٥.

(٢) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٨١.

يقول الأستاذ محمد حسين هيكل: «وقد كانت قريشٌ وكان يَهودُ بني قَيْنُقاع ويَهودُ بني النَّضير وعرب غَطفان وهُذَيْل والقبائل المُتاخمة للشام، تَتربَّصُ كلُّ واحدة منها بمحمدٍ وأصحابه الدوائر، وتَوَدُّ كلُّ واحدةٍ منها لو تستطيع أن تجدَ الفرصةَ لإدراك ثأرها من هذا الرجلِ الذي فرَّقَ العربَ في دينها شيَعاً، والذي خَرَجَ من مكة مهاجراً لا حولَ له ولا قوةَ إلا ما يملأ نفسَه الكبيرةَ من الإيمان، وها هو ذا في خمس سنوات قد أصبحَ له من الحول ومن القوَّة ما جعلَه مرهوبَ الجانبِ من أشدِّ مدائنِ العربِ ومن أشدِّ قبائلها حَوْلاً وقُوَّةً»[1].

وكانت هُذَيْل قد قامتْ بأوَّل حركة ضدّ المسلمين بعد معركة أُحُد، إذ تَجَمَّعَ بنو لحْيان ـ بطن من هُذَيْل ـ في عُرنَة مع بعض القبائل الأخرى حول مكَّةَ تحت قيادة خالد ابن سفيان بن نُبيْح الهُذَليِّ متآمرين على محمدٍ، فبلغَ النبيَّ ﷺ أن خالدَ بن سفيان بن نُبَيْح الهذليّ يجمَعُ الناسَ ليغزُوه، وأنه بنخلةَ أو بعُرْنَة، فبعث إليه عبدَ الله ابن أُنَيْس حيث خرج من المدينة يوم الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من المُحَرَّمِ على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة[2] ليغزوه فقَتلَه.

ويحدثنا ابنُ إسحاق عن ذلك فيقول: "حدَّثني محمدُ بن جعفر بن الزُّبَيْر قال: قال عبد الله بن أُنَيْس: دعاني رسول الله ﷺ، فقال: إنه قد بلغني أنَّ ابن سفيان بن نُبيح الهُذَليَّ يجمعُ لي الناسَ ليغزُوني، وهو بنخلةَ أو بعُرَنة فأْته فاقْتُلْهُ. قُلتُ: يا رسولَ الله، انْعَتْهُ لي حتى أعرفه، قال: إنك إذا رأيتَه أذكَرَكَ الشيطانَ، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدتَ له قُشْعَريرة. قال: فخرجتُ متوشِّحاً سَيْفي، حتى دُفعْتُ إليه وهو في ظُعُنٍ يرتاد لهنّ مَنزلاً، وحيث كان وقت العصر، فلما رأيتُه وجدتُ ما قالَ لي رسولُ الله ﷺ من القُشْعَريرَة، فأقبلتُ نحوَه وخشيتُ أن تكونَ بيني وبينه مجاولةٌ تَشغَلُني عن الصلاة، فصلَّيْتُ وأنا أمشي نَحْوَه، أومئ برأْسي، فلما انتهيتُ إليه،قال: مَن الرجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سَمعَ بك وبجمعك لهذا الرجل،فجاءك لذلك. قال:أجَلْ إني لفي ذلك. قال: فَمَشَيْتُ معه شيئاً، حتى إذا أمكنَني حملتُ عليه بالسيف فقتلْتُه، ثم خرجتُ وتركتُ ظَعائنَه مُنْكَبَّات عليه، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ فرآني، قال: أفلح الوجه، قلت: قد قتلتُه يا رسول الله. قال: صدقتَ. ثم قام

---

(١) حياة محمد لهيكل ص٣٣٧.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ١٧ ص١٢٨.

بي فأدخلَني بيته فأعطاني عَصاً، فقال :أَمْسكْ هذا العصا عندَك يا عبدَ الله بن أُنَيْسٍ، قال : فخرجتُ بها على الناسِ، فقالوا : ما هذه العصا؟ قلتُ : أعطانيها رسولُ الله ﷺ ، وأَمرني أنْ أُمْسكَها عندي، قالوا : أفلا ترجعُ إلى رسولِ الله ﷺ فتسألَهُ لِمَ ذلكَ؟ قال : فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسولَ الله لمَ أعطيتني هذه العَصا؟ قال : آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إنَّ أقل الناس المُتَخَصِّرون(١) يومئذ، قال : فَقَرنَها عبدُ الله بن أُنَيْس بسيفه، فلم تَزَلْ معه حتى مات، ثم أمرَ بها فَضُمَّت في كفنه، ثم دُفنا جميعاً"(٢).

وقالَ عبدُ الله بنُ أُنَيْس في قَتْلِه ابنَ نُبيْح الهُذَليَّ :

تَرَكْتُ ابنَ ثورٍ كالحُوارِ وحولَهُ ... نوائِحُ تَفْرِي كلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ
تَناوَلْتُهُ والظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ ... بأبيضَ من ماءِ الحديدِ مُهَنَّدِ
أقولُ له والسيفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ ... أنا ابنُ أُنَيْسٍ فارساً غيرَ قُعْدُدِ
وقلتُ لهُ خُذْها بَضَرْبَةِ ماجدٍ ... حنيفٍ على دينِ النبيِّ محمدِ
وكنتُ إذا هَمَّ النبيُّ بكافرٍ ... سبقتُ إليه باللسانِ وباليَدِ(٣)

ثم هَدَأَتْ بنو لِحْيان بعدَ قَتْلِ ابنِ نُبَيْح زمناً، ولو أنهم كانوا يملكون القوَّةَ لما تَردَّدوا في الثأر لزعيمهم،ولذلك فكروا أن يَلْجَؤوا إلى الحيلةِ حتى يثأروا له .

يوم الرَّجيع :

وحدَثَ في ذلك الحين أن قَدمَ على رسولِ الله ﷺ رَهْطٌ من عَضَل والقارَة(٤) فقالوا : يا رسولَ الله إن فينا إسلاماً فأبعَثْ معنا نَفَراً من أصحابك يُفقّهوننا في الدِّين. ويُقرئُوننا القرآنَ، ويعلِّموننا شرائع الإسلامِ. وكان ﷺ يبعثُ من أصحابه كلما دُعِيَ إلى ذلك، ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية، وليدعوا الناسَ إلى الهدى ودين الحقِّ، ولذلك بعثَ النبيُّ صلوات الله عليه نفراً ستةً من أصحابه، وهم مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد

---

(١) المتخصرون : المتكئون على المخاصر، وهي العصي واحدتُها : مِخْصَرة.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص٤٧٩ .
(٣) المرجع السابق جـ٧ ص٤٨١ .
(٤) عَضَل والقارة من بني الهُون بن خُزَيمة بن مُدْركة.

الغنويُّ، وخالدُ بن البُكَيْر اللَّيثيُّ، وعاصمُ بن ثابت بن أبي الأَقْلَح، وخُبيْبُ بنُ عَديّ، وزيد بن الدَّثِنَة بن معاوية، وعبد الله بنُ طارق، وذكر السُّهَيْليُّ أنَّ أصحاب الرجيع كانوا ستة، ولكنه يَرى أنَّ الأصحَّ هو ما رواه البخاريُّ في "الجامع الصحيح" من أنهم كانوا عشرة(١).

ومهما يكن من أمرٍ فقد أَمَّرَ رسولُ الله ﷺ مَرْثَدَ بن أبي مَرْثَد الغنويَّ فخرجَ مع القوم، فلما كانوا جميعاً على ماء لهُذَيْلٍ بالحجاز بناحية تُدْعَى الرَّجيع ظهرَ مكرُ وفْد عَضَل والقارَة، إذ غَدَروا بهم، واستصرخوا عليهم هُذَيْلاً فلم يَرُعِ القومَ وهم في رحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف قد غَشُوهم فأخذَوا أسيافَهم ليُقاتلُوهم، ولكن هُذَيْلاً قالت لهم: "إنا والله ما نريدُ قتلَكُم ولكنا نريدُ أْ ن نُصيبَ بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقُه ألا نَقْتُلَكم"(٢) وأدركَ وفد المسلمين أنَّ الذهابَ بهم إلى مكةَ على هذه الصورة إنما هو المذلَّة والهوان، وأنه شرٌّ من القتل، ولذلك رَفَضوا ما وعدتْ هُذَيْل وانبروا لقتالها، وقال مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد، وخالد بن البُكَيْر، وعاصمُ بن ثابت، والله لا نقبلُ من مشركٍ عهداً ولا عقداً أبداً. وخرج عاصمُ بن ثابت فقاتل القومَ حتى قُتِل وقُتِلَ معه صاحباه، فلما قُتِل عاصمٌ أرادت هُذَيْل أن تأخذَ رأسَه لتبيعَه من سُلافَة بنت سَعْد بن شُهَيد، التي كانت قد نَذَرَتْ حين أصابَ ابنيها يوم أُحُد لئِنْ قَدَرَتْ على رأسِ عاصمٍ لتشرَبَنَّ في قِحْفِه الخمر، وحدث أن الدَّبْر - وهي الزنابير - منعَتْ هُذَيْلاً من أَخْذِه وحالت بينه وبينهم، وقالوا: دَعُوه حتَّى يُمْسِيَ فتذهبَ عنه، فنأخذه، ثم حدث أن بعثَ اللهُ الواديَ فاحتمل عاصماً، وذهب به، وقد كان عاصمٌ قدأعطى الله عهداً أن لا يمسَّه مشركٌ، ولا يمسَّ مشركاً أبداً تَنَجُّساً.

وأما زيد بن الدَّثِنَة وخُبَيبُ بن عَدي وعبد الله بن طارق فَلانُوا ورقوا ورغبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم(٣). ولعلَّهم أدركوا أنَّه لا طاقةَ لهم بهم، ثم خرجت بهم هُذَيْل إلى مكَّة لتبيعهم هناك فلما كانوا في الطريق عند الظَّهْران، انتزع عبدُ الله ابن طارق أحدُ المسلمين الثلاثة يده من غل الأسْرِ ثم أخذَ سيفَه، فاستأخَرَ عنه القوم، فرَموه بالحجارة حتى قتلوه.

---

(١) الروض الأنف للسهيلي جـ٦ ص١٨٤. وانظر «صحيح البخاري» الحديث (٣٠٤٥).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٦ ص١٦٣.

(٣) المرجع السابق جـ٦ ص١٦٥.

أما الأسيران الآخران خُبَيْب بن عدي وزيد بن الدَّثِنَة فَقَدمتْ بهما هُذَيْل إلى مكَّةَ، وباعَتْهما إلى قريش بأسيرين من هُذَيْل كانا بمكةَ، فباعت زيدَ بن الدَّثِنَةَ لصفوان بن أمية الذي اشتراه ليقتله بأبيه أميةَ بن خلف، فبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نِسْطاس إلى التنعيم ليقتلَه،ولما أخرجوه من الحَرَمِ ليقتلوه اجتمع رهطٌ من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم للقتل:أَنْشُدُكَ الله يا زيد أتُحبُّ أنَّ محمداً عندنا الآن في مكانك نَضْرِبُ عُنُقَه، وأنكَ في أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تُؤْذيه، وإنيِّ جالس في أهلي ! فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيتُ من الناس أحداً يحب أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً[1]، ثم قتلَ نِسْطاس زيداً فذهب شهيداً لله ولنبيه ولدينه.

وأما خُبَيْبُ بن عَديٍّ فَحُبس حتى خَرَجوا به ليصلبوه،قال ابن إسحاق: "قال عاصم: ثم خرجوا بخُبَيْبٍ حتى إذا جاؤوا به إلى التَّنْعيم ليصلبوه، قال لهم: إنَّ رأيتم أنْ تَدعَوني حتى أركعَ ركعتين فافعلوا، قالوا: دونَكَ فاركَعْ، فركعَ ركعتين أَتَمَّهُما وأَحْسَنَهُما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تَظنّوا أنّي إنما طوَّلتُ جَزَعاً من القتل لاستكثرتُ من الصَّلاة، قال: فكان خُبَيْبُ بن عدي أوَّلَ مَن سَنَّ هاتين الركعتين عندَ القتلِ للمسلمين. قال: ثم رفعوه على خشبة، فلمّا أَوْثَقوه، قال: اللَّهمَّ إنّا قد بَلَّغْنا رسالةَ رسولكَ، فبلّغه الغداة، ما يُصْنَع بنا، ثم قال: اللَّهمّ أَحْصِهم عدداً، واقْتُلْهُم بَدَداً، ولا تغادرْ منهم أحداً، "ثم قتلوه رحمه الله"[2]، ويقال: إن أبا مَيْسَرة هو الذي طعن خبيباً في الخشبة، وهو أبو مَيْسَرَة بن عوف بن السَّبَّاق بن عبد الدار، والذي طعنَه معه عُقْبَةُ بن الحارث ويكنى أبا سَرْوَعَة[3]. وذكر السهيليُّ أنَّ صلاةَ خُبَيْب إنما صارت سُنَّةً حسنةً مع أنَّ السنةَ إنما هي أقوال وأفعال من إقرار النبي عليه السلام، وذلك لأنه فعلها في حياته ﷺ فاسْتُحْسِن ذلك من فِعْله، لأنَّ الصلاةَ هي خيرُ ما خُتِم به عَمَلُ العبد[4].

---

(١) المرجع السابق جـ٦ ص١٦٦.

(٢) المرجع نفسه جـ٦ ص١٦٧.

(٣) الروض الأنف للسهيلي جـ٦ ص١٨٨.

(٤) المرجع السابق جـ٦ ص١٩٢.

وهكذا استشهدَ خُبَيْبٌ كما استشهدَ زَيْدٌ في سبيل الله وفي سبيل دينه ونبيِّه وقد حزَن المسلمون وحزنَ الرسول ﷺ لما أصابَ أصحابَهم الذين استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله ، بسبب غَدْرِ هُذَيْل بهم، وذكر ابن عباس(١) أنه لما أُصيبَتْ السَّرِيَّةُ التي كان فيها مَرْثَدُ وعاصمُ بالرَّجيع، قال رجالٌ من المنافقين: يا ويحَ هؤلاء المَفْتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهْليهم ولا هم أَدَّوْا رسالةَ صاحبهم! فأنزلَ الله تعالى في ذلك من قول المنافقين، وما أصابَ أولئك النفر من الخير بالذي أصابهم، فقال سبحانه: ﴿ **ومن النَّاس مَنْ يُعْجبُكَ قَولُه في الحياة الدُّنْيا ويُشْهِد اللهَ على ما في قَلْبِه وهو أَلَدُّ الخِصَام** ﴾ [البقرة : ٢٠٤].

فماذا ربحتْ هُذَيْل من يوم الرجيع؟ إنها تَمكَّنَتْ أن تأخذَ بثأر خالد بن سفيان ابن نُبَيْح الهُذَلي، وتمكَّنَتْ من أن تبتاع أسيرين من المسلمينَ لتخلِّصَ بهما أسيرين لها كانا بمكة عند قريش، فإنها لم تتمكَّنْ من أن تأخذَ رأسَ عاصم بن ثابت لتبيعه إلى سُلافةَ بنت سَعْد بن شُهَيْد التي كانت قد نَذَرت لتشربَنَّ في قحْفَته الخمرَ فإن الله سبحانه قد هيأ له الدَّبْر لتحميَه من مَكرِهم وغَدْرِهم.

أضفْ إلى ذلك أنَّ هُذَيْلاً قد واجهتْ غضبَ المسلمين عليها وكراهَتَهم لها وعرضت نفسَها لجيوشِ المسلمين تغزُوها في المستقبلِ.

ونرى أنَّ حسانَ بن ثابت أرسلَ أشعارَه يرثي فيها خُبَيْباً وأخذ يبكيه في شعر صادق مؤثر فيقول:

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَرقَا مدامعُها	**سحّاً على الصَّدرِ مثل اللؤلُؤِ القَلِقِ**
على خُبَيْبٍ فتَى الفِتيانِ قد عَلموا	**لا فَشلٍ حين تَلقاه ولا نَزِقِ**
فاذهبْ خُبَيْبُ جزاكَ اللهُ طَيِّبَةً	**وجَنَّةَ الخُلْدِ عند الحُورِ في الرُّفُقِ**
ماذا تقولونِ إنْ قالَ النبيُّ لَكُمْ	**حينَ الملائكةُ الأبْرارُ في الأفُقِ**
فيمَ قتلتُمْ شهيدَ اللهِ في رَجلٍ	**طاغٍ قد أَوعثَ في البلدانِ والرُّفَقِ(٢)**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٦ ص١٦٩ .

(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص١٧١ .

ونرى شاعرَ الرسول ﷺ يهجو هُذَيْلاً كذلك بشعرٍ كثير، بسبب ما صنعوه بخُبَيْب بنِ عَديّ وأصحابه فيقول حسان:

أَبلِغْ بَني عَمْرٍو بأنَّ أَخاهُمُ ... شراهُ امرؤٌ قد كان للغدرِ لازماً

شراهُ زُهيرُ بنُ الأغرِّ وجامعُ ... وكانا جميعاً يركبانِ المَحارِمَا

أَجَرْتُمْ فلمّا أنْ أَجَرتُمْ غَدَرْتُمُ ... وكنتُمْ بأكْنافِ الرَّجيعِ لَهاذِما

فلَيتَ خُبَيباً لم تَخُنْهُ أمانةٌ ... وليتَ خُبَيْباً كانَ بالقومِ عالِماً [1]

وقال حسان أيضاً يهجو هُذَيْلاً، ويُصَوِّر بشاعَة جريمتهم، ويخصّ منهم بني لِحْيان فيقول:

لَعَمْري لقد شانَتْ هُذَيْلُ بنَ مُدْرِكٍ ... أحاديثُ كانتْ في خُبَيْبٍ وعاصمِ

أحاديثُ لِحْيان صَلَوْا بقبيحِها ... ولِحْيانُ جَرّامونَ شرَّ الجرائمِ

أُناسٌ هُمُ مِن قومِهم في صَميمِهِمْ ... بمنزلة الزِّمْعانِ دُبْرَ القوادمِ

هُم غَدروا يومَ الرَّجيعِ وأسْلَمَتْ ... أمانَتُهم ذا عِفَّةٍ ومكارِمِ

رسولَ رسولِ اللهِ غَدْراً ولم تكُنْ ... هُذَيْلٌ تَوَقَّى مُنكَراتِ المَحارمِ

فسوفَ يَرَوْنَ النصرَ يوماً عليهِمُ ... بقَتْلِ الذي تَحْميهِ دونَ الحرائمِ

أبابيلُ دَبْرٍ شُمَّسٍ دونَ لَحْمِهِ ... حَمَتْ لَحْمَ شُهّادٍ عظامَ الملاحِمِ

لَعَلَّ هُذَيلاً أن يَروْا بمُصابِه ... مَصارِعَ قَتْلَى أو مَقاماً لِماتَمِ

ونُوقِعُ فيهم وَقْعَةً ذاتَ صَوْلَةٍ ... يُوافي بها الرُّكْبانُ أهلَ المواسِمِ [2]

إلى غير لك من الشعر الكثير الذي قاله حسانُ بن ثابت في هجاء هُذَيْل[3] والذي يَتَّضح فيه غضبُ المسلمين على قَبيلةِ هُذَيْل لما ارتكَبَتْه من الغدرِ والخيانة الذي لا يتناسب مع الطبيعة أو الأخلاق العربية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٦ ص١٧٣.

(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص١٧٤.

(٣) المرجع نفسه جـ ٦ ص٣٦٥.

obeikandi.com

غزوة بني لِحْيان:

وبعد ستة أشهر من القضاء على بني قُرَيْظَة فكَّر الرسولُ ﷺ في أن ينتقِمَ لأصحاب الرَّجيع وهم خُبَيْبُ بنُ عَدِيّ وأصحابه، فخرجَ في جُمادى الأولى إلى بني لِحْيانَ من هُذَيْل يطلبُ بأصحاب الرَّجيع، وأظهرَ أنه يريدُ الشامَ ليصيبَ القوم غِرَّة[1]، وذكر ابن سَعْد أن هذه الغزوةَ كانت في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة وأنه ﷺ استخلفَ على المدينة عبدَ الله بن أمِّ مَكْتُوم[2].

على أن الرسول ﷺ لم يَجهرْ بقَصْده مَخافةَ أن يتَّخذَ العدُوُّ الحيطةَ لنفسه، ولذلك أظهرَ أنه يريد الشامَ ليصيبَ العدو على غِرَّة، فأخذَ قواته وسار بهم شمالاً، فلما اطمأنَّ إلى أنهم لم يفطنوا لمقاصده رجعَ إلى ناحية مكةَ وأخذَ في المسير مسرعاً حتى بلغ منازلَ بني لِحْيان بغُران. ويحدثنا ابن سَعْد في ذلك فيقول:

"ثم أسرعَ في السيرِ حتى انتهى إلى بطن غُران، وبينها وبين عُسْفان خمسة أميال حيث كان مُصاب أصحابه، فترحَّم عليهم ودعا لهم، فسمعَتْ بهم بنو لِحْيان فهربوا في رؤوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوماً أو يومين فبعثَ السرايا في كلِّ ناحية فلم يقدروا على أحد، ثم خرجَ حتى أتى عُسْفان فبعثَ أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فَيَذْعَرُهم، فأتوا الغَميمَ ثم رجعوا ولم يلَقْوا أحداً، ثم انصرفَ رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو يقول: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون" وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة"[3].

وذكر ابنُ إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة، فسلكَ على غُراب - جبل بناحية المدينة على طريق الشام - ثم على مَحيص، ثم على البَتْراء، ثم صَفَّق ذاتَ اليسار، فخرج على بَيْن، ثم على صُخَيْرات اليَمام، ثم استقام به الطريقُ على المَحَجَّة من طريق مكة، فأغَذَّ السير سريعاً، حتى نزل على غُران، وهي منازل بني لِحْيان، وغُران وادٍ بين أَمْج وعُسْفان إلى بلد يقال له: سايَه، فوجدهم قدْ حَذِروا وتمنَّعوا في رؤوس الجبال. فلمّا نَزلها رسولُ الله ﷺ، وأَخْطأه مِنْ غِرَّتهم ما أراد، قال: لو أنا قد

---

(١) المرجع نفسه جـ ٦ ص٣٦٥.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص٧٨.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص٧٨.

هَبَطنا عُسفان لرأى أهلُ مكة أنا قد جئنا مكة، فخرج في مئتي راكب من أصحابه حتى نزل عُسْفان،ثم بعث فارسَيْن من أصحابه حتى بلغ كُراع الغَميم، ثم كَرَّ وراح رسولُ الله ﷺ قافلاً، فكان جابرُ بن عبد الله يقول: " سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين وجَّه راجعاً: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذُ بالله من وعثاء السَّفَر، وكآبة المُنْقَلَب، وسوء المنظر في الأهل والمال»(١).

وهكذا يتضح أنَّ هذه الغزوةَ التي قام بها الرسول ﷺ يطلبُ فيها بني لِحْيان كانت كبيرةً، فإذا رُوي أن الرسولَ ﷺ خرج في مئتي راكب من أصحابه حتى نزل عُسْفان، مما يدُلّ دلالةَ واضحةً على أن جيشَ المسلمين كلّه كان كبيراً وكان فيه من الرهبة للعدُوِّ لدرجةٍ أخافت بني لِحْيان، وأثارت الفزعَ والذُّعْر عندَهم حتى إنهم هربوا وتمنَّعُوا في رؤوس الجبال. ولا شكّ أنَّ هذه الغزوة كانت نصراً للمسلمين، إذ يكفي أن بني لِحْيان قد هَرَبوا وحَذِروا وجَبنوا عن لقاء جيش المسلمين، حتى قال كعبُ بن مالك في هذه الغزوة:

لو أنَّ بني لِحْيان كانوا تناظَروا ... لَقُوا عُصَباً في دارِهم ذاتَ مَصْدَقِ
لَقُوا سَرَعاناً يملأ السَّرْبَ رَوْعُه ... أمام طَحُونٍ كالمَجَرَّةِ فَيْلَقِ
ولكنهم كانوا وِباراً تَتَبَّعَتْ ... شِعابَ حِجازٍ غير ذي مُتَنَفَّقِ (٢)

يوم فتح مكة:

وفي العام الثامن للهجرة تحرَّكَ جيشُ المسلمين من المدينة قاصداً مَكَّةَ ليفتحَها وليضعَ يدَه على البيت الحرامِ الذي جعله الله مثابةً للناسِ وأمناً. تحرّكَ هذا الجيشُ في عدد لا عَهْد للمشركين به، فقد سار الرسولُ ﷺ في عشرة آلاف من أصحابه،وقد بعثت القبائل من سُلَيْم ومُزَيْنة وغطَفان وغيرها من انضمَّ إلى المهاجرين والأنصار في جيش كبير جرار. واستخلف النبيُّ ﷺ على المدينة أَبا رُهْمٍ كُلثومَ بنَ حُصَيْن بن عُتْبة ابنِ خَلف الغِفاريَّ(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٦ ص٣٦٥.
(٢) المرجع السابق جـ٦ ص٣٦٦.
(٣) المرجع نفسه جـ٧ ص٦٠.

وسارَ النبي ﷺ في الجيش حتى انتهى إلى ذي طُوَى، وهناك أمر أن يُفَرَّقَ الجيشُ أربع فِرَقٍ، وأمرَها جميعاً ألا تُقاتلَ وألا تسفك دماً، إلا إذا أُكْرِهَتْ عَلى ذَلك إكراهاً، واضطرت إليه اضطراراً، وجعلَ الزُّبيرَ بن العوام على المُجَنَّبة اليسرى من الجيش، وأمره أن يدخلَ في بعض الناس من كُدَى، وأمر سَعْدَ بن عُبادة أن يدخلَ في بعض الناس من أهل المدينة من كَدَاء، وأمر خالد بن الوليد أن يدخلَ من اللِّيط أسفلَ مكَّةَ في بعض الناس، وكان خالد على المُجَنَّبة اليمنى من الجيش ثم أبو عبيدة بن الجراح الذي كان بالصفّ من المسلمين يَنْصَبُّ لمكةَ بين يدي الرسول ﷺ(١).

ودخلت جيوش المسلمينَ مكةَ، ولم يلقَ منها مقاومةً إلا جيش خالد بن الوليد، فقد كان صفوانُ بنُ أُميةَ، وعِكْرِمةُ بنُ أبي جَهْلٍ، وسُهَيْلُ بنُ عمرو قد جمعوا ناساً بالخَنْدَمة ليُقاتلوا هناك، وهؤلاء لم يرضَوا بما نادى به أبو سفيان، بل أعّدوا عدَّتَهم للقتال، واستعدوا لذلك، فلما دخلت فرقةُ خالد بن الوليد أمطروها بنبالهم ولكن خالداً لم يلبثْ أن فَرَّقَهم وقتلَ بعضَهم ولاذَ الآخرون بالفرار، ولم يُقْتَلْ من رجال خالد إلا اثنان كانا قد ضَلاَ طريقَهما، وانفصلا عنه وسلكا طريقاً غيرَ طريقه فقتلا. وذكر ابنُ إسحاق أنه قُتلَ من المشركين ما يَقْرُبُ من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ثم انهزموا(٢). ولكن ابن سَعْد ذكر في الطبقات أن خالداً قُووِم في الخَنْدَمة فقتل أربعةً وعشرين رجلاً من قريش وأربعةَ نَفَرٍ من هُذَيْل(٣). ويؤيد هذه الروايةَ ما رُوي من أن أبا الرَّعَاش الصاهليَّ من هُذَيْل أقبل يومَ الفتح، فتح مكَّةَ يُريدُ نَصْرَ قريش وبني بكرٍ ويَطلُبُ الغنائمَ، وكان قد قال لامرأته: آتيك بخادمٍ وأُحَلِّيك من غنائم أصحاب محمد! وهُمْ على السُّوَيْداء والخَنْدَمة والحَبْس، فلم يَفْجَأْهُ إلا أصحابُ النبيِّ ﷺ يَطردون المشركين، فذهبَ فاراً حتى وَصلَ إلى أَهْله، فلامَتْه امرأته وعَيَّرَته في ذلك، وقالتْ له: شاهَ الوَجْهُ - أي قُبِحَ - أَخَذَلْتَ قومَك؟ فقال يعتذر إليها:

إنَّك لو أبْصَرْتَنا بالخَنْدَمَهْ ... إذْ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ

وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُؤْتَمَهْ ... واسْتَقْبَلَتْهُم بالسيوف المُسْلِمَهْ

---

(١) المرجع نفسه جـ ٧ ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه جـ ٧ ص٧٠.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص٩٨.

ضَـرْباً فـلا تَسْـمَعُ إلا غَـمْـغَـمَـهْ تَقْطَعُ كلَّ سـاعِـدٍ وَجُـمْـجُـمَـهْ
لَهُمْ نَهـيـتٌ خَلْفَنَا وَهَمْـهَـمَـهْ لم تَنْطِقِي في اللومِ أَدْنَى كَلِمَـهْ[1]

وهذا يوضح أن هُذَيلاً أو بعضها كان مع قريشٍ في القتال الذي دار في الخَنْدَمة، والوقوف معها ضد المسلمين.

ويدخل الرسول ﷺ مكَّةَ حتى إذا كان غداة يوم الفتح حدثَ أن عَثَرَتْ خُزاعةُ على رجلٍ من هُذَيل يُدْعَى ابنُ الأَثْوَع الهُذَلي، وكان مشركاً فقتلوه شَرَّ قِتْلَة وكان لهذا الرجل قصةٌ رواها ابن إسحاق فقال: "حدَّثني سعيد بن أبي سَنْدَرٍ الأَسْلَميُّ عن رجل من قومه، قال: كان معنا رجلٌ يقالُ له أَحْمر بأساً، وكان رجلاً شجاعاً وكان إذا نام غَطَّ غطيطاً مُنْكَراً، لا يخفى مكانه، فكان إذا بات في حَيِّه بات مُعْتَنزاً فإذا بُيِّتَ الحيُّ صرخوا يا أحمر،فيثور مثل الأسد، لا يقوم لسبيله شيء، فأقبل غَزِيٌّ من هَذَيْل يريدون حاضرَه، حتى إذا دَنَوْا من الحاضر، قال ابنُ الأثوع الهُذَليُّ لا تتعجلوا عليَّ حتى أنظر، فإن كان في الحاضر أحمر فلا سَبيل إليهم، فإن لَه غَطيطاً لا يخفى، قال: فاستمع، فلما سمع غطيطه مشى إليه حتى وضع السيف في صَدْرِه، ثم تحامل عليه حتى قتله،ثم أغاروا على الحاضر، فصرخوا يا أحمر ولا أحمرَ لهم، فلما كان عام الفتح، وكان الغَدُ مِنْ يوم الفتح، أتى ابنُ الأثوع الهُذَليُّ حتى دخلَ مكَّةَ ينظرُ ويسألُ عن أمرِ الناس، وهو على شِرْكه فرأتْه خُزاعة، فعَرفوه، فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جُدُر مكة، يقولون: " أأنت قاتلُ أحمرَ؟ قال: نعم، أنا قاتلُ أحمرَ فَمَهْ؟ قال: إذ أقبلَ خِراشُ بن أُميَّة مشتملاً على السيف، فقال: هكذا عن الرجُل، ووالله ما نَظنُّ إلا أنه يريد أن يُفرج الناس عنه، فلما انفرجنا عنه حمل عليه، فطعنه بالسيف في بطنه، فوالله لكأني أنظر إليه وَحشْوتُه تَسيل من بطنه، وإن عينيه لتُرَنِّقانِ في رأسه، وهو يقول: أَقدْ فعلتُموها يا معشرَ خُزاعة؟ حتى انْجَعَفَ فوقع"[2].

وقد غضبَ الرسولُ ﷺ لهذا الحادث،وقامَ في النّاسِ خطيباً فقال: "أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ حرَّم مكَّةَ يوم خلق السماوات والأرضَ، فهي حرامٌ من حرامٍ من حرامٍ إلى يوم القيامة لا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤْمِن بالله واليومِ الآخر أنْ يَسْفِكَ فيها دماً أو يَعْضِدَ فيها شجراً لم تَحْلِلْ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٨٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٧ ص٧٧.

لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تُحْلَلْ لي إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ثم رَجَعَتْ كحُرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ. فمن قال لكم: إنَّ رسولَ الله قد قاتل فيها، فقولوا: إن اللهَ قد أحلَّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكم يا معشر خُزاعة. ارفعوا أيديَكم عن القتل فلقد كثر القتلُ إنْ نفع. لقد قَتَلْتُم قتيلاً لأدِيَنَّهُ، فمن قَتَلِ بعد مقالي هذا فأهله بخير النّظَرَيْن: إن شاؤوا فدَمُ قاتله، وإن شاؤوا فعَقْلُهُ"(١) ثم ودَى بعد ذلك الرجل الذي قتلتْ خُزاعةُ. وروى الدار قطنيُّ في السنن أن النبيَّ ﷺ قال: "لو كنتُ قاتلَ مسلمٍ بكافرٍ لقتلتُ خِراشاً بالهُذَلِيِّ"(٢).

وكان فتحُ مكَّةَ واستيلاء المسلمين على البيتِ الحرامِ من أكبرِ العواملِ التي ساعدت على نجاح الدَّعوة الإسلامية، فقد اعتقدت القبائلُ العربية التي رفضَتْ الدَّعْوى بادئ ذي بدء، أن المسلمينَ تلحظُهم وترعاهم عنايةٌ إلهيَّةٌ لا قِبَلَ لغيرهم بها، فسارعوا إلى الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

وإذا كنّا لا نعلم متى أسلَمَتْ هُذَيْل بالضبط وعلى وجه التحديد، فقد ذكرنا في الفصل السابق، أنَّ الرسولَ ﷺ بعثَ عمرَو بن العاص إلى سُواعٍ ليهدِمَهُ وذلك في شهر رمضان بعدَ الفتح. وقد مَرَّ بنا كذلك أن سدَنَةَ سُواعٍ كانوا من بني لِحْيان من هُذَيْل، وأن السادنَ قد أسلم بعدَ هَدْمِ سُواعٍ وذلك بين يدي عمرو بن العاص، ولا شك أنَّ إسلامَ السادن شيء خطير جداً، إذ يمكن أن يُسْتَدَلَّ به على إسلام بني لِحْيان أو حتى على إسلام هُذَيْل كلّهم.

وبعد فتح مكَّةَ كانت غزوةُ حُنَيْنٍ، فقد سمع النبيُّ ﷺ أن قبائلَ هَوازن وثقيفٍ وغيرهم، يَعُدُّون العُدَّةَ لحربِ المسلمين، وذلك بقيادة مالكِ بنِ عوفٍ النَّصريِّ من هَوازن. فسار النبيُّ ﷺ إليهم في السنة الثامنة للهجرة على رأس جيش بلغ اثني عشر ألفاً لمحارَبَتهم، واستخلفَ على مكَّةَ عَتَّاب بن أَسيد بن أبي العيص بن أُميةَ بن عبد شمس(٣).

وكان المشركون قد تجَمَّعُوا وتَحَصَّنوا في وادي حُنَيْن، ولما خرجَ الرسولُ ﷺ إلى حُنَيْنٍ حدَث أن غَرَّت المسلمينَ كثرتُهم،وكادتْ هَوازن أن تُذيقَهم الهزيمةَ، حتى إنهم اضطربوا وفَروا في أول الأمر، ولكن النبيَّ ﷺ ثبتَ في مكانه ودعا المسلمينَ

---

(١) حياة محمد لهيكل ص٤٢٩.

(٢) الروض الأنف للسهيلي جـ٧ ص١٠٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٧ ص١٦٤.

إليه،فنظَمَ صفوفَهُم من جديد، وأنزلَ بأعدائه هزيمةً فادحةً، واستولى على غنائمَ كثيرةٍ منهم، كما سبَى نساءَهم وأطفالَهم، ثم استرَدَّتْ هَوازن سباياها عندما أسلمتْ بعدَ غزوة الطائف في تلك السنة أيضاً[1].

ويبدو أن نَفَراً من هُذَيْل قد اشتركوا مع المشركين ضدَّ المسلمينَ في غزوة حُنَيْنٍ وقد روى الأصمعيُّ وأبو العلاء أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ أخذوا أُناساً في يوم حنينٍ أُسارى، وكان فيهم زُهيرُ بن العَجْوَة، أخو بني عمرِو بن الحارث من هُذَيْل، فمر به جَميلُ بن مَعْمَر بن حبيب بن وَهْب بن حُذافَة بن جُمَح وهو مربوط في الأسرى، وكانت بينهما إِحْنَةٌ في الجاهلية، فضرب عنقه[2]. فرثاه أبو خِراش الهُذَليّ في ذلك اليوم. وذكر ابنُ هشام أنَّ جميل بن معمر الجُمَحيَّ لما رآه مكتوفاً قال له: أأنت الماشي لنا بالمغايظ؟ فضَرَبَ عُنُقَه، فرثاه أبو خِراش الهُذَلي وكان ابن عَمِّه[3] ومما قاله أبو خِراش في قَتْلِ زُهيرِ بن العَجْوَة ورثائه:

فَجَّعَ أضيافي جميلُ بنُ مَعْمَرٍ ... بذي فَجَرٍ تأوي إليه الأَرامِلُ

طويلِ نِجادِ البَزِّ ليسَ بجَيْدَرٍ ... إذا اهتَزَّ واسترْخَتْ عليه الحَمائلُ

إلى بيته يأْوِي الضعيفُ إذاشَتا ... ومُهْتَلِكٌ بالِي الدَّريسَيْنِ عائلُ

تكادُ يَداهُ تُسْلِمانِ رداءَهُ ... من الجودِ لمّا اسْتَقْبَلَتْهُ الشمائلُ

فما بالُ أهلِ الدارِ لم يتَحَمَّلُوا ... وقد بانَ منها اللَّوْذَعِيُّ الحُلاحِلُ[4]

فنراه قد وصفَه بالكرمِ حتى إنَّ بيتَه كان مأوى للغرباء والضيفان، وأن بيتَه كان مأوى للأرامل من النساء اللاتي يذهبنَ إليه طلباً لمعروفه، ونراه قد أشاد بكرمه الواسع حتى إن يديه لا تحبسان شيئاً من ماله، ومما يدلّ كذلك على أنه كان سيداً في قومه. ثم نلاحظ أن أبا خِراشٍ الهُذَليَّ لم يتوعَّدْ القاتلَ، بل أوضَح أنَّ ما فعلَهُ جميلُ بنُ مَعْمَر الجمحيُّ ليس عن طريق الشجاعة، وذلك لأنه قتلَه وهو مُوْثَق ولم ينازله في

---

(١) المرجع السابق جـ٧ ص٢٤١.

(٢) الأغاني جـ ٢١ ص٢٣٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص١٩٤.

(٤) الأغاني جـ ٢١ ص٢٣٦ وكتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٣ ص١٢٢١ بذي فَجَرٍ: بذي معروف، البز: السيف، الجيدر: القصير، الدريسان: الثوبان الخَلَقان، عائل: فقير.

القتال، وكأنني أشتم من هذه القصيدة رائحةً غيرَ إسلامية. على أن أبا خِراش يقول بعد ذلك إن الإسلام قد جاء وأحاط برقابنا، حيث منع من الطلب بالأوتار، فلا نستطيعُ أن نعملَ شيئاً، وأنه قد ذهب عَهْد الفتوة وصار الفتَى كالكَهْلِ في تَعَقُّلِه واتزانه فيقول:

فوالله لَوْ لاَقَيْتَهُ غَيْرَ مُوثَقٍ ... لآبَكَ بالجِزْعِ الضِّباعِ النَّواهِلُ

وأنَّكَ لو واجهتَهُ إذْ لَقِيتَهُ ... فنازَلْتَهُ أو كُنْتَ مِمَّن يُنازِلُ

لَظلَّ جَميلٌ أسوأَ الناسِ تَلَّةً ... ولكنَّ قَرْنَ الظَّهْرِ للمَرْءِ شاغِلُ

فليسَ كَعَهْدِ الدارِ يا أُمّ مالكٍ ... ولكنْ أحاطَتْ بالرقابِ السَّلاسِلُ

وعاد الفتَى كالكهلِ ليس بقائلٍ ... سوَى العَدْلِ شيئاً فاستراحَ العواذِلُ (١)

وكانت غزوةُ حُنَيْنٍ ثم غزوةُ الطائف التي كانت بعدَها مباشرةً في تلك السنة هي آخر مُقاومَة للعرب الجاهليين، فقد دخلتْ جميعُ القبائل في الإسلام، ودخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجاً، يقول الدكتور طه حسين: "ولكنّ أمور العرب تتغير فَجأة، فإذا سلطان قريشٍ يندكُّ، وإذا التوازن بين القبائل العربية في نجد والحجاز يختَلّ وإذا وقعةُ حُنينٍ تحطم آخرَ مقاومةٍ للعرب الجاهليين، وإذا كلمة الإسلام هي العليا وإذا أشراف العرب وصعاليكهم وأوساطهم مصروفون عن هذه الحياة الجاهلية التي كانوا فيها، إلى هذه الحياة الجديدة التي كان الإسلام يدعُوهم إليها دعاءً، فأصبح يدفعهم إليها دفعاً(٢).

ثم كانت سنة تسع من الهجرة وهي عام الوفود، حيث قَدِم على رسول الله ﷺ وفودُ القبائلِ التي لم تكن قَدْ أسلمَتْ، فقدَّموا الطاعَة، وأسلموا بين يديه عليه السلام إذ إنه لما تَمَّ له صلوات الله عليه فتحُ مكَّةَ، وفَرَغَ من غزوة حُنينٍ وحصارِ ثقيفٍ في الطائف. أسلمت ثقيفٌ وبايعتْ، وضربتْ إليه وفود العربِ من كلّ وَجْهٍ، وكانت الوفودُ التي تأتي إلى المدينة يَلْقَوْنَ من النبيِّ ﷺ كلَّ حَفاوَةٍ بهم تزيدهم على الإسلام إقبالاً، وتردّ أكثرهم إلى إمارته ومكانته بين قومه، مما يجعلُه شديدَ الحرص على دينه الجديد.

---

(١) المرجعان السابقان. النواهل: المشتهيات للأكل، كما تشتهي الإبل الماء، الجِزْع: منعطف الوادي، فاستراح العواذل: لا يجدن ما يعذلن فيه.

(٢) حديث الأربعاء د. طه حسين جـ ١ ص١٢٨.

فإذا كانت قريش صاحبة الزعامة الدينية عند العرب قد دخلت في الإسلام، فلا غَرْوَ أن يدخلَ جميعُ العرب في دين الله أفواجاً، يقول ابن إسحاق: "وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمرَ هذا الحيِّ من قريشٍ، وأمْرَ رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمامَ الناس وهاديهم، وأهلَ البيت الحرام، وصريحَ ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادةَ العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريشٌ هي التي نَصَبَتْ لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتُتحَتْ مكَّةُ، ودانت له قريشٌ، ودَوَّخَها الإسلام، وعرفت العربُ أنه لا طاقةَ لَهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **أفواجاً** ﴾ ليضربون إليه من كل وَجْه، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أفواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّه كانَ تواباً** ﴾، أي: فاحمد اللهَ على ما أظهر من دينكَ، واستغفره إنه كان تواباً[1].

وفي السنة العاشرة للهجرة خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى مكَّةَ للحَجِّ في جمعٍ كبيرٍ من المسلمين يَقْرُبُ من مئة آلف[2]، واستخلفَ على المدينة أبا دُجانَةَ الساعديَّ ويقال: سباعُ بنُ عُرْفُطَةَ الغفاريُّ[3]. وقد ألقى الرسولُ ﷺ على المسلمين في حَجَّة الوداع خُطْبَتَهُ الخالدة، التي يعرض فيها لهُذَيْل حيث قال: "وإنَّ كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوعٌ[4]، وإنَّ أوَّلَ دمائكم أضعُ دمَ ابنِ ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليثٍ، فقتلته هُذَيْل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية"[5].

وكانت هُذَيْل قد قَتَلَتْ طفلاً صغيراً لربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث بن بكرٍ، وكان اسمه آدم، وقيل: تَمّام، وجاء الإسلامُ قَبْلَ أن يأخذَ ربيعةُ بن الحارث بدمِ ابنه، وفي خُطْبَة الرسول ﷺ في حَجَّة الوداع أبطلَ الطلب بذلك. وذكر السهيليُّ أن سببَ مَقْتَله حربٌ كانت بين قبائلِ هُذَيْلٍ حيث تقاذفوا فيها بالحجارة، فأصابَ الطفلَ حَجَرٌ وهو يحبو بين البيوت، فماتَ على أثر ذلك وكذلك ذكر الزُّبَيْرُ[6].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص٣٥٧.

(٢) حياة محمد لهيكل ص٤٨٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص٤٥٧.

(٤) أي: مُهْدَر.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص٤٦١.

(٦) الروض الأنف للسهيلي جـ٧ ص٥١١.

وهناكَ روايةَ أخرى لابن الأعرابي حيث يقول: "بل خرجتْ بنو عَمْرو بن الحارث بن تميم بن سَعْد بن هُذَيْل مُغيرين يريدونَ بني عَبْد بن عَديٍّ بن الدِّيل بن بكرِ بن عَبْد مَناة ابن كنانه، وقد كانوا عَهدُوهم في منزلٍ، فَظَعَنَتْ بنو عَبْد بن عَديٍّ من ذلك المنزل، ونزلَه بنو سَعْد بن ليث بن بكرٍ، فبيَّتَهُمُ القوم وهم يظنون أنَّهم بنو عَبْد بن عديٍّ، فأصابوا فيهم وقتلوا منهم ناساً، وقتلوا غلاماً كان فيهم مُسْتَرْضَعاً، وهو ابنُ ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب، وهو الذي وضَعَ رسولُ الله ﷺ دَمَه يومَ الفتح"(١) وذكر السُّكَّريُّ أنَّ رسولَ الله ﷺ وَضَعَ دمَ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ بن عبد المطلب في حَجَّةِ الوداعِ(٢).

ويروى أنَّ حُذَيْفَةَ بن أَنسٍ قال في ذلك اليوم:

غَلَتْ حربُ بكر واستطَار أَديمُها ... ولو أنَّها إذ شُبَّت الحربُ بَرَّت
وأخطأَ عَبْداً ليلةَ الجِزْعِ عَدْوَتي ... وإيَّاهُمُ لولا وُقُوْها تحَرَّت
أُسَائلُ عن سَعْدِ بن لَيْثٍ لَعَلَّهُمْ ... سِواهُمْ وقدْ صابَتْ بِهِمْ فاسْتَحَرَّت
أصبْنَا الذينَ لم نُردْ أن نُصيبَهُمْ ... فساءَتْ كثيراً من هُذَيْلٍ وسَرَّت (٣)

ولم يمض على حَجَّةِ الوداع ثلاثةُ أشهرٍ حتى مرضَ الرسولُ ﷺ بالحُمَّى ثم انتقل إلى جوار ربِّه في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة(٤) الموافق (٨ يونيو ٦٣٢م)(٥) وكانت وفاتُه عليه السلام خَطْباً كالحاً فقد وقعَ خَبرُ وفاته ﷺ على المسلمينَ وَقْعَ الصاعقة، ويروى أن أبا ذُؤَيْبٍ الهُذَليَّ قَدمَ المدينةَ عند وفاة الرسول ﷺ، وأنه شَهدَ دَفْنَه كما شَهدَ بيعةَ أبي بكر في السَّقيفَة،وكان قد بلغه نبأُ مَرَضِ الرسول صلوات الله عليه فحزنَ لذلك حُزناً شديداً، وذكر الألوسي أن أبا ذُؤَيْب كان ممن اشتَهَرَ بالزَّجْر والعيافة عند العرب، ويروى عنه أنه قال في تلك المناسبة الأليمةَ" : بلغنا أنَّ رسُولَ الله ﷺ عَليلٌ فاستشعرتُ حُزناً، وبتُّ بأطول ليلة لا ينجابُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٢ ص٥٤٩.

(٢) ديوان الهذليين جـ٣ ص٢٦.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٢ ص٥٤٩ وديوان الهذليين ٢/٢٦ غَلَتْ: ارتفعت، استطار: تشقَّق، أديمها: جلدها، شُبَّتْ: أوقدت، بَرَّت: وَفَت، تحرَّت: عَمَدَتْ وقَصَدَت إليهم، وُقُوها: وقاهم الله. صابت بهم: أوقعت بهم.

(٤) كتاب المعارف لابن قتيبة ص٧٢.

(٥) حياة محمد لهيكل ص٥٠٥.

دَيْجُورُهَا ولا يطلع نورُها، فبتُّ أقاسي طولَها، حتى إذا كان وقتُ السَحَرِ أغفيتُ فهتفَ بي هاتفٌ وهو يقول:

خَطْبٌ أَجَلُّ أَنَاخَ بالإسلامِ ... بينَ النخيلِ ومَقْعَدِ الآطامِ

قُبِضَ النبيُّ محمدٌ فعيونُنَا ... تُذْرِي الدموعَ عليهِ بالأسْجَامِ

قال أبو ذؤيب: فوثبتُ من منامي فَزِعاً،فنظرتُ إلى السماء،فلم أرَ إلا سَعْدَ الذابح فأولتهُ ذَبحاً يقع في العرب، وعلمتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد قُبِضَ أو هو ميتٌ من علَّته، فركبت ناقتي وسرتُ، فلما أصبحتُ طلبتُ شيئاً أزجرُ به فعرض لي شَيْهَمٌ - وهو ذكر القنافذ - قد قبض على صِلٍّ - يعني حيَّةً - فهي تلتوي عليه، والشيهمُ يقضمها حتى أكلَها، فزجرتُ ذلك وقلت: شَيْهَمٌ، شيءٌ هَمٌّ، والتواءُ الصِّلّ تلوي الناسِ عن الحقِّ على القائم بعدَ رسول الله ﷺ ثُمَّ أَوَّلْتُ أَكْلَ الشيهم إيّاها غلبةَ القائم بعد رسول الله ﷺ على الأمر، فحثَثْتُ ناقتي حتى إذا كنتُ بالغابة زجرتُ الطائرَ فأخبرني بوفاته ﷺ، ونعبَ غرابٌ سانحٌ فنطقَ بمثل ذلك، فتعوَّذتُ باللهِ من شرِّ ما عَنَّ لي في طريقي فقَدمْتُ المدينةَ ولها ضَجيجٌ بالبكاء كضجيج الحَجيجِ إذا أهلُّوا بالإحْرامِ، فقلت: ما الخبرُ؟ قالوا: قُبضَ رسولُ الله ﷺ، فجئتُ إلى المسجد فوجدتُه خالياً فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فوجدتُ بابَه مُرْتَجاً - أي مُغْلَقاً - وقيل: هو مُسَجًّى وقد خلا به أهلُه، فقلتُ: أينَ الناس؟ فقيلَ: في سَقِيفة بني ساعِدَةَ صاروا إلى الأنصار، فجئتُ إلى السقيفة فأصبتُ أبا بكرٍ وعُمَرَ وأبا عبيدةَ بن الجراح وجماعةً من قريشٍ، ورأيتُ الأنصارَ فيهم سَعْدُ بنُ عُبادةَ وفيهم شعراؤهم حسانُ بن ثابت وكعبُ بن مالك، فآويتُ إلى قريش وتكلَّمَت الأنصارُ فأطالوا الخطابَ،وأطالوا الجوابَ، وتكلَّم أبو بكرٍ فلله دَرُّهُ من رَجُلٍ لا يطيلُ الكلامَ ويعلمُ مواضعَ فَصْلِ الخطاب، واللهِ لقد تكلَّم بكلامٍ لا يَسمَعُهُ سامعٌ إلا انقادَ له ومالَ إليه،ثم تكلَّم عُمَرُ رَضي اللهُ عنه بدون كلامه،ثم قال لأبي بكر: مُدَّ يدَكَ أبايعكَ، فمدَّ يدَه فبايعَه وبايعَه الناسُ، ورَجَع أبو بكرٍ رضي الله عنه ورَجعْتُ معه قال أبو ذؤيب: فشهدتُ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ وشهدتُ دَفْنَه"(١) وقد أنشد أبو ذؤيب يبكي النبيَّ ﷺ فقال:

لما رأيتُ الناسَ في عَسلانِهِم ... من بين مَلْحُودٍ لهُ ومُضَرَّحِ

متبادِرِين لِشَرْجَعٍ بأكُفِّهِمُ ... نَصَّ الرِّقابِ لفقدِ أبيضَ أَرْوَحِ

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٣١٥.

فهناكَ صِرتُ إلى الهُموم ومَنْ يَبِتْ ... جارَ الهُمومِ يَبِيتُ غيرَ مُرَوَّحِ
كسَفَتْ لِمَصْرَعِهِ النجومُ وبَدْرُها ... وتَزَعْزَعَتْ آطامُ بَطْنِ الأبْطَحِ
وتَزَعْزَعَتْ أَجْبالُ يثربَ كلُّها ... ونَخِيلُها لحلولِ خَطْبٍ مُفْدِحِ
ولقد زجرتُ الطيرَ قبلَ وفاتِهِ ... بمصابِهِ وزَجَرْتَ سَعْدَ الأَذْبَحِ (١)

وكان لرجالات هُذَيْل نشاطٌ وحركةٌ في المجتمع الإسلامي، وخاصَّة في عَهْد الخلفاء الراشدين، وقد كان نشاطُهم في شَتَّى الميادين، لا سيما الفتوحات الإسلامية التي شاركوا فيها مشاركة فعالة، فهذا أبو ذُؤَيْب الهُذَليُّ يتحركُ مع الجيوش الإسلامية، ويروى أنه غادرَ الجزيرةَ العربية متَّجهاً إلى مصرَ - مع جند عبد الله بن سَعْد بن أبي السَّرْح وذلك في سنة ٢٦هـ، وأنهم دَلَفوا إلى "إفرنجة" ففتحوها، ثم عاد مع عبد الله ابن الزُّبَيْر في وَفْدٍ من الجيش لإخبار عثمانَ رضي الله عنه بالنَّصْر، وفي أثناء مُرورِ الوفدِ بمصرَ مات أبو ذؤيبٍ بها ودُفِنَ فيها(٢).

وروى صاحب الأغاني أن أبا ذؤيب كان قد ذَهَبَ إلى عُمَرَ بن الخطاب ومعه واحدٌ من أبنائه، وابنُ أخٍ له يُسمَّى أبا عُبَيد، فلما دخلوا على عُمَر سأله أبو ذؤيب: أيُّ العمل أفضلُ يا أميرَ المؤمنينَ؟ قال: الإيمانُ بالله ورسوله، قال أبو ذُؤَيْب: قد فعلتُ فأيُّهُ أفضلُ بعدَه؟ قال: الجهادُ في سبيل الله، قالَ أبو ذؤيب: ذلك كان علّيَ، وإنِّي لا أرجو جَنَّةً ولا أخاف ناراً. ثم خرجَ فغزا أرضَ الروم مع المسلمين، فلما قفلوا حَضَرَه الموتُ، فأرادَ كلٌّ من ابنه وابن أخيه أن يَتَخَلَّفَ معه، ولكن قائد ساقَة الجيشِ لم يوافقْ وقال: ليتخلفْ عليه أحدُكُما وليعلمْ أنه مقتول، فطلب أبو ذؤيب منهما أن يقترعا فخرجت القرعةُ لأبي عُبَيْد، فتخلَّف معه ومضى ابنُه مع الجيش.

وحدَّثَ أبو عُبَيْد في ذلك فقال: قالَ لي أبو ذُؤيب: يا أبا عُبَيْد، احْفُرْ ذلكَ الجُرفَ برمحكَ، ثم اعْضُدْ من الشجرِ بسيفكَ، ثم أجْرُرْني إلى هذا النَّهْرِ فإنَّك لا تفرغ حتَّى أفرُغَ، فاغْسِلْني وكَفِّنِّي ثم اجعلْني في حفيري، وانْثِل علي الجُرفَ برْمحكَ، وألقِ عليَّ الغصونَ والشَّجَر، ثم اتبعِ الناسَ فإن لهم رَهْجَةً تراها في الأفقِ إذا مشيتَ كأنها جَهامَةٌ(٣).

---

(١) الروض الأنف للسهيلي جـ٧ ص٥٩٣.

(٢) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان جـ٢ ص١٠٧.

(٣) عَضَدَ الشجر: قَطَعَه، نَثَل الركية ينثُلُها: أخرجَ ترابَها، الرَّهْجة: ما أثير من الغبار، الجَهامة: السحابة البيضاء لا ماء فيها.

قال: فما أخطأ مما قالَ شيئاً، ولولا نَعْتُه لم أهتدِ لأثرِ الجيشِ، وعندما كان يجود بنفسه قال:

أبا عُبَيْدٍ رُفِعَ الكتابُ ... واقتربَ الموعِدُ والحسابُ
وعندَ رَحْلِي جَمَلٌ مُنْجابُ ... أَحْمَرُ في حاركِهِ انصِبابُ (١)

قال أبو عبيد: "ثم مضيتُ حتى لحقتُ الناسَ، فكان يقال: إن أهلَ الإسلام أبعدوا الأثَر في بلدِ الروم، فما كان وراء قَبْرِ أبي ذؤيب قبرٌ يُعْرَفُ لأحدٍ من المسلمين(٢).

ويظهر أن مشاركتَهم في الحروب أدَّتْ إلى فَناء الكثيرينَ منهم واستشهادِهم في سبيل الله، وقد رُوي أن خِراش بن أبي خِراشٍ الهُذَليَّ خرجَ وغزا مع المسلمين، وأنَّهم أَوغَلُوا في أرض العدُوِّ، فقدم أبو خِراشٍ إلى المدينة، وجلس بين يدي عُمَرَ رضي الله عنه، وشكا إليه شوقه إلى ابنه، وأنه رجلٌ قد انقرضَ أهلُه وقُتِلَ إخوته، ولم يبقَ له ناصرٌ ولا معينٌ سوى ابنه خراش، وقد غزا وتَركَه ثم أنشد:

ألاَ مَنْ مُبلْغٍ عنيٍّ خِراشاً ... وقد يأتيكَ بالنبأِ البعيدُ
وقد يأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لاَ ... تُجَهَّزُ بالحذاءِ ولا تَزِيدُ

إلى أن يقول:

ألا فاعلمْ خِراشُ بأنَّ خَيْرَ الـ ... مُهَاجِرِ بعد هجرتِه زَهِيدُ
وأنكَ وابتغاءَ الخيرِ بعدِي ... كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ ولا يَصِيدُ (٣)

وروي أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه كتب بأن يرجع خِراشُ إلى أبيه، وأمر ألا يغزَو من كان له أبٌ شيخٌ إلا بعد أن يأذنَ له(٤).

---

(١) المُنْجاب: الضعيف، الحارِك: الكاهل، الانصباب: التعب.

(٢) الأغاني جـ٦ ص٢٦٣.

(٣) الأغاني جـ٢١ ص٢٥١ تزيد: أراد ولا تزوّد، قوله: (كمخضوب اللبان ولا يصيد) هذا مثل يعني أن الكلب يلطخ حلقه وصدره بالدم، يُري بذلك الناسَ أنه قد صاد وهو لم يَصِدْ.

(٤) المرجع السابق جـ ٢١ ص٢٥١.

وهذا عبدُ الله بن مَسعودٍ الصحابيُّ الجليلُ رضي الله عنه، ينطَلقُ مجاهداً مع جيشِ الفتوح، على نحو ما فعلَ الصحابةُ، رضوان الله عليهم، حين انطلقوا بعدَ وفاة الرسول ﷺ يحملون أرواحَهم على أكُفِّهِمْ، لينشروا كلمةَ الله بين الناسِ وانطلقَ ابنُ مسعودٍ يسبقُ الناسَ إلى الفتوحِ، ويُعَلِّمُهُمْ ما تَعَلَّمَهُ في رحابِ رسول الله ﷺ، فقد شاركَ في فتح الشام، وشهدَ اليرموكَ، وكان على الأقياض[١]، كما شاركَ في حصار حِمْصَ وبعد فتحها بعثَه أبو عبيدةَ بالأخماس إلى عُمَرَ بنِ الخطاب[٢].

وفي العصرِ الأُمويِّ نرى أنه كان لهم مشاركةٌ في الفتوحاتِ الإسلامية، فهذا أبو العيال الهذليُّ حينما كان محصوراً هو وأصحابٌ له في أرض الرومِ، وذلك في زمنِ مُعاويةَ رضي الله عنه نراه يكتبُ إلى مُعاويةَ بكتابٍ ويقرؤه على الناس فيقولُ:

مِنْ أبي العيالِ أَخي هُذَيْلٍ فاسْمَعوا ... قَولِي ولا تَتَجَمْجَمُوا ما أُرْسِلُ
أبلغْ مُعاويةَ بنَ صخرٍ آيةً ... يَهْوي إليهِ بها البريدُ الأَعْجَلُ
والمَرْءُ عَمْراً فَأْتِهِ بصَحيفَةٍ ... مِنيِّ يلوحُ بها كتابٌ مُنْمَلُ

إلى أن يقول:

أَنَّا لَقِينا بعدَكُم بديارِنَا ... من جانبِ الأمراجِ يوماً يُسْأَلُ
أمراً تَضيقُ به الصُّدُورُ ودونَهُ ... مُهَجُ النفوسِ وليسَ عنهُ مَعْدِلُ
في كلِّ مُعْتَرَكٍ تَرى منا فتىً ... يَهْوي كَعَزْلاءِ المَزادةِ تُزْغِلُ
أو سيِّداً كَهْلاً يَمُورُ دِماغُهُ ... أو جانحاً في صَدْرِ رُمْحٍ يَسْعُلُ
فترَى النِّبالَ تَعِيرُ في أقطارِنا ... شُمْساً كأَنَّ نِصالَهُنَّ السُّنْبُلُ
وترى الرِماحَ كأنَّما هي بيننا ... أشْطانُ بئرٍ يُوغِلُونَ ونُوغِلُ[٣]

---

(١) الأقياض، أي: الغنائم.

(٢) عبد الله بن مسعود. د. عبده الراجحي ص٢٤ ط الشعب.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ١ ص٤٣٣ الجمجمة: أن يردِّد الكلامَ في نفسه ولا يفهمه. آية: علامة، عَمْراً: يقال هو عمرو بن العاص كما ذكر السُّكَّريُّ، مُنْمَل: متقارب الخط، يُسْأَل، أي يُسْأَل عنه لشدته، مهجة النفس: خالصها، معترك: ملتقى الناس للحرب، يَهْوِي: يموت، العَزلاء: فم المزادة، تُزْغِل: تدفع بالدمِ، تَعير: تذهب كذا وكذا، شمساً: ليست على طمأنينة، أشطان: حبال، أقطارنا: نواحينا، كأنها «السنبل» في الدِّقة.

obeikandl.com

فنرَى أبا العيالِ في هذه القصيدة يشرحُ لمعاويةَ الظروفَ التي كانت محيطةً بهم بكلِّ دقة ووضوح.

ونرى أبا العيال الهُذَليَّ في قصيدة أخرى يَرثي ابنَ عمٍّ له يقال له: عَبْدُ بن زُهْرَة الهُذَليُّ. الذي قتله الروم بالقسطنطينية في زمن مُعاويةَ كذلك، وهي قصيدة طويلة، يقول فيها:

فَتىً ما غادرَ الأقْوامُ لا نَكْسٌ ولا جَنَبُ
ولا زُمَّيْلَةٌ رِعْديدَةٌ رَعِشٌ إذا ارْكَبُوا
ولا كَهْكاهَةٌ بَرَمٌ إذا ما اشتدَّت الحِقَبُ
ولا حَصِرٌ بِخُطْبَتِهِ إذا ما عَزَّت الخُطَبُ
ذَكَرْتُ أخِي فَعاوَدَني رُدَاعُ السُّقْمِ والوَصَبُ
كما يَعْتادُ ذاتَ البَوِّ بعدَ سُلُوِّها الطَّرَبُ
فدمْعُ العينِ من بُرَحَاءَ ما في الصَّدْرِ يَنسَكِبُ
كما أوْدَى بماءِ الشَّنَّةِ المَخْرُوزَةِ السَّرَبُ
على عَبْدِ بن زُهرةَ طُولِ هذا الليلِ أَكْتَئِبُ
أبو الأضيافِ والأيتامِ ساعةَ لا يُعَدُّ أَبُ[٢]

ونلاحظ لوعَتهُ وحزنَه وهو يرثي ابنَ عَمِّه عَبْدَ بن زُهْرَةَ،الذي وصفه بالكرم والشجاعة، وقد عرض الشاعر لدموعه المنسكبة عليه باستمرار، ثم لما أصابه من الصداع من جراء التفكير في ابن عمه الذي استشهد على أيدي الروم بالقسطنطينية.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ١ ص٤٢٣ النِّكْسُ: سَهْمٌ نُكِسَ فَجُعِلَ أعلاه أسفلَه، جَنَب: قصير، الزُّمَّيْل: الضعيف، الرعديدة: الجبان، الرَّعِش: المضطرب من الجبن، الكَهْكاهة: الذي يهاب كلَّ شيء، الحِقَب: الأزمان، البَرَم: الذي لا يُخْرج مع القومِ في المسيرِ مخافةَ الغُرْمِ، الحَصِرُ: الضَّيِّقُ النَّزْرُ، الرُّداع: النُّكْسُ، ذات البَوِّ: الناقة التي ماتَ ولدها، فحُشِي جلدُه تبناً لترأمَهُ، الطَّرَب: خِفَّة وضيقٌ في النَّفْس يكون من الفرح والحزن، الشَّنَّة: القِرْبَةُ الخَلَقُ. السَّرَب: ما سال من الماء، البُرَحاء: شدَّةُ الوجد والمشقة.

وكان لرجالات هُذَيْلٍ مكانةٌ ساميةٌ عند الخلفاء الراشدين،ولا شكَّ أنه كان من أشهرهم الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي شَهِدَ مع الرسول ﷺ بدراً وبيعةَ الرضوانِ وجميعَ المشاهد، وقد كان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمرَ بن الخطاب وصدراً من خلافة عثمان بن عفان.

ومما يدل على منزلته بين أصحاب رسول الله ﷺ قولُ عُمَرَ بن الخطاب عنه عندما أرسله إلى الكوفة، وقد كتب إلى أهلها: " إني قَدْ بعثْتُ عمارَ بن ياسرٍ أميراً وعبدَ الله ابن مسعودٍ مُعَلِّماً ووزيراً، وهما من النُّجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أهلِ بدرٍ، فاقتدوا بهما، وأَطيعُوا واسْمَعُوا قولَهما،وقد آثرتُكُم بعبد الله على نَفْسي "(١) ويقول المسعوديُّ: " وبعث أميرُ المؤمنين إلى الكوفة عمارَ بن ياسرٍ أميراً، وعثمانَ بن حُنَيْفٍ على الخراج وعبدَ الله بنَ مسعود على بيت المال وأمره أن يُعَلِّمَ الناسَ القرآن ويُفَقِّهَهُم في الدِّين وفرض لهم في كلِّ يومٍ شاةً، فجعلَ شطرَها وسواقطها لعمارِ بن ياسرٍ، والشطرَ الآخرَ بين عبدِ الله بن مسعود وعثمانَ بن حُنَيف "(٢).

وفي الكوفة كانَ منزلُ عبدِ الله بنِ مسعود في جماعة من هُذَيْلٍ، وذلك في موضع يقال له الرَّمادة، وكانت دارُه موئلاً للضيفان حيث ينزلون عنده فيلقون عنده السماحة والكرم(٣). وكان ابنُ مسعود يتمتَّعُ بمكانةٍ كبيرةٍ عند قومه من هُذَيل وكذلك عند أهلِ الكوفةِ الذين كانوا يحبُّونَه ويجلُّونه إجلالاً عظيماً.

ولما كان عثمانُ بن عفان أقرَّه على عَمَله في أولِ الأمر، وحدثَ أنه لما ولي الكوفةَ الوليدُ بن عقبة سارَ على سياسةٍ لم يرضَ عنها ابنُ مسعودٍ فاختلفا، ويقال: إن الخلاف بينهما قد بدأ حين وصلَ لابنِ مسعودٍ أنَّ الوليدَ يشربُ الخمرَ، وأرسلَ ابنُ مسعودٍ عدداً من الشهودِ إلى الخليفة في المدينة، ثم استدعَى الخليفةُ الوليدَ وهو أخوه لأُمه، وأُمُّهما أَرْوَى بنت كُرَيْزٍ(٤). والمهمُّ أن الخليفة أقامَ عليه الحدَّ وعزلَه وعَيَّنَ مكانَه سعيدَ بن العاص، وهو أحدُ الصحابة المتقدمين والياً على الكوفة(٥).

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٣/٢٥٩.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ١/٣٣٣.
(٣) عبد الله بن مسعود د. عبده الراجحي ص٢٦.
(٤) المرجع السابق ص٣٢.
(٥) المرجع نفسه ص٣٤.

ويقال: إن سببَ الخصامِ بينهما، كان بسبب مالٍ استقرضَه الوليدُ، ولما حاول ابنُ مسعودٍ استرداده أبى ذلك،وشكا إلى عثمانَ، فأرسل إليه يقول: إنما أنت خازنٌ لنا،فلا تعرضِ للوليد فيما أخذ مِن المال. فطرحَ ابنُ مسعودٍ مفاتيحَ بيتِ المال وأقامَ بالكوفة غاضباً(١).

ومهما يكن من أمرٍ فقد حضرَ ابنُ مسعود إلى المدينة بناء على استدعاء عثمانَ ابن عفان، ويروى أنه لما قَدمَ المدينةَ طردَه عثمانُ من مسجدها طرداً عنيفاً أثار هُذَيْلاً وغيرها ممن كان موجوداً(٢). ثم منع عثمان عطاءَ عبد الله بنِ مسعودٍ الذي كان يأخذُه عن عمله مشرفاً على بيت المال(٣). ويقال: إن ابن مسعود عادَ بعد ذلك إلى الكوفة يواصلُ رسالته في تعليم الناسِ، وظلَّ فيها إلى ما قَبْلَ وفاته بشهرٍ واحد حيث ذهب إلى المدينة، وتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين هجرية(٤). ويروى أنه لما مات صلى عليه عمارُ بن ياسر، وقيل: الزُّبيرُ بن العوام وأنَّه دَفَنَه بالبقيع ليلاً بايصائه إليه بذلك، وأن عثمانَ لم يَعْلَمْ بذلك فعاتبَ الزُّبيرَ في هذا الأمر(٥). ثم إن هناك روايات تذكر أن عثمانَ شَهِدَ وفاته وصلّى عليه(٦) وكان يوم توفي ابن بضع وستين سنه(٧).

على أن الخلاف الذي كان بين عثمانَ بن عفان وعبدِ الله بن مسعود لم يكن ليُؤَثِّر على العلاقةِ بينهما،والحقّ أن الصلةَ التي كانت بين عثمانَ وعبد الله رضي الله عنهما هي نفسها الصلةُ التي كانت بين كبار صحابَة رسول الله ﷺ ، فقد آمنوا معاً، وجاهدوا معاً، ولا شَكَّ أنَّ كلّاً منهما كان يَعْرِفُ قَدْرَ الآخرِ ومنزلَتَه وفَضْلَه تجاه الإسلام.

ولعلَّ مما يُوَضِّحُ تلكَ المكانة التي كان يتمتع بها رجالاتُ هذه القبيلة عند الخلفاء، ما رُوي من حُزْنِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه، على أبي خِراشٍ

---

(١) الفتنة الكبرى د. طه حسين جـ ١/ ١٥٩، وأنساب الأشراف للبلاذري ص٢٩.
(٢) أنساب الأشراف ص٣٦.
(٣) عبد الله بن مسعود د. عبده الراجحي ص٣٨.
(٤) المرجع السابق ص٤٠.
(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ١٨ ص٢٢٥.
(٦) عبد الله بن مسعود د. عبده الراجحي ص٤٠.
(٧) نهاية الأرب للنويري جـ١٨ ص٢٢٥.

الهُذَلي حينما نَهَشَتْه حَيَّةٌ وماتَ على أثرِ ذلك، وكان أبو خِراش قد أسلم وحَسُنَ إسلامُه، ورُوي أنه أتاه نَفَرٌ من أهلِ اليمنِ قدموا حُجَّاجاً، فنزلوا بأبي خِراشٍ وكان الماءُ منهم غيرَ بعيد، فقال لهم : يا بني عَمِّي، ما أَمْسَى عندنا ماءٌ، ولكن هذه شاةٌ وُبُرْمَة وقِربْة، فِردُوا الماءَ وكلُوا شاتَكم،ثم دَعوا بُرْمَتنَا وقِرْبَتَنا على الماءِ حتى نأخذها. فقالوا: لا واللهِ ما نحن بسائرين في ليلتنا هذه، وما نحنُ ببارحين حيثُ أمسينا. فلما رأى أبو خِراش منهم ذلك أخذ قربتَه، وسعى نحو الماء أثناء الليلِ حتى استقى، ثم أقبل صادراً، وحَدَثَ أن نَهَشَتْهُ حَيَّةٌ قَبْلَ أن يصلَ إليهم، فأقبلَ مُسْرِعاً حتى أعطاهم الماءَ وقال: اطبخوا شاتَكم وكُلوا، ولم يُعْلِمْهم بما أصابه،فباتوا على شاتهم يأكلون حتى أصبحوا وأصبحَ أبو خراش ميتاً،فلم يبرحوا حتى دَفَنُوه،ورُوي أن أبا خِراشٍ قال وهو يعالجُ الموتَ:

لعَمْرُكَ والمنايَا غالباتٌ ... على الإنسانِ تَطْلُعُ كلَّ نَجْدِ

لقد أَهْلَكْتِ حيَّةَ بطْنِ أَنْفٍ ... على الأَصْحابِ ساقاً ذاتَ فَقْدِ (١)

ونلاحظ أنه يرثي نفسَه، ويبكي ساقه التي كان يعدو بها في الجاهلية في غزواته ومغامراته.

ولما بلغَ خبرُه عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، غَضِبَ غضباً شديداً وقال: "لولا أن تكون سُنَّةً لأمرتُ ألا يضافَ يمانٍ أبداً، ولكتبت بذلكَ إلى الآفاق. إن الرجل ليضيف أحدهم، فيبذل مجهودَه فيسخطُه ولا يقبله منه ويطالبه بما لا يقدر عليه كأنه يطالبه بدين، أو يتعنته ليفضَحَه، فهو يكلفه التكاليف، حتى أهلكَ ذلك من فعلهم رجلاً مسلماً وقتَله"، ثم كتب إلى عامله باليمن بأن يأخذ النَّفَر الذين نزلوا بأبي خراش فيُغْرِمَهُمْ دِيَتهُ، ويؤدِّبهم بعدَ ذلك بعقوبة تَمَسُّهم جزاءً لأعمالهم(٢).

ولعل مما يفصح عن مكانتهم عند الخلفاء أن عَمْرَو بنَ عُمَيْس بن مسعود، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود كان والياً لعليّ بن أبي طالب على القُطْقُطانَة، ثم قتله هناك عاملُ معاويةَ الضحاكُ بن قَيسٍ الفِهريُّ(٣).

---

(١) الأغاني جـ ٢١ ص٢٥٢ بطْن أنفٍ: موضع من مواضع هُذَيْل، ذات فَقْد، أي: فقدها يشق على الأصحاب، ويعظم عليهم وذلك لما وهبه الله من سرعة عدوه بها.

(٢) الأغاني جـ ٢١ ص٢٥٢.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٩٧.

وكان لرجالات هُذَيْل مكانةٌ عند خلفاء بني أُمَيَّةَ في العصرِ الأُمويِّ كذلك وكانوا مقدمين عند الخلفاء،ومما يروى في ذلك أن مُعاوية بن أبي سفيان كتب إلى زياد: انظر رجلاً يصلحُ لثغرِ الهند فَوَلِّه ، فكتب إليه: إن قَبلي رَجُلَيْن يصلحان لذلك: الأحنف ابنُ قيس، وسنان بنُ سَلَمةَ الهُذَليُّ، فردَّ عليه معاويةُ: بأي يَوْمَيْ الأحنف نكافيه، أبخُذلانه أمّ المؤمنين، أَمْ بسعيه علينا يومَ صفينَ؟ فوجِّه سناناً ،فكتب إليه زياد: إن الأحنفَ قد بلغَ من الشرف والحِلْمِ والسُّؤْدَد مالا تنفعُه الولاية ولا يضُّره العزلُ[1]. ويتضحُ من ذلك مكانةُ سنان بن سَلَمة الهُذَليِّ عند مُعاوية وأنه فَضَّلَه على غيره ليكون عاملاً له، مع أن زياداً ـ كما يبدو ذلك ـ كان يرغب في تولية الأحنف بنِ قيس.

ونمضي حتى نرى عمرَ بن عبد العزيز يقول عن مُسلم بن جُنْدُبٍ الهُذَليِّ الذي كان قاصَّ مسجد النبيِّ ﷺ بالمدينة، وكان إمامُهُم وقارئُهم حيث قال فيه: "مَن سَرَّه أن يسمعَ القرآن غَضّاً فليسمَعْ قراءةَ مُسْلم بنِ جُنْدُب"[2] ثم ما رُوي من أنَّ عمرَ بن عبد العزيز كان يُحبُّ مجالسةَ أبي عبد الله عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود، وهو من أعلام التابعين، وأحدُ الفقهاءِ السبعة بالمدينة، وهو ولد ابن أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد سبق أن عمرَ بن عبد العزيز قال فيه: لأنْ يكونَ لي مَجْلسٌ من عُبَيْد الله أحَبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، وقال: والله إني لأشتري ليلةً من ليالي عُبَيْد الله بألف دينارٍ من بيت المال. فقالوا: يا أميرَ المؤمنين،تقولُ هذا مع تَحرِّيكَ وشدّة تحفظك؟ فقال: أين يذهبُ بكم والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيتِ مالِ المسلمين بألوفٍ وألوف، إن في المحادثة تلقيحاً للعقلِ، وترويحاً للقلب وتسريحاً للهمِّ وتنقيحاً للأدب[3].

فيتضح مما سبق أن كثيراً من رجالاتهم كانوا مُقَرَّبين إلى الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل على مكانتهم الرفيعة لدى الخلفاء، ويدل كذلك على حسن سيرتهم وصلاحهم وفضلهم ورجولتهم الحقة.

ولقد سبق أن كثيراً من رجالاتهم كانوا أُمَويِّ النزعة، فأحبوا الأمويينَ وأخلصوا إليهم، حتى إنهم كانوا ضدَّ المنشقينَ على بني أُميةَ، كعبد الله بن الزُّبير الذي نَصَّبَ

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ١ ص٢٢٧.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص٣٦٨.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص٢٧١.

نفسه خليفةً على الحجاز. فيروي صاحبُ الأغاني أنَّ أبا صخرٍ الهُذَلي دخلَ في وَفْدٍ من هُذَيْل على عبد الله بن الزُّبَيْر في مكَّة، وقد جاؤوه ليقبضوا عطاءَهم، وكان ابنُ الزبير عارفاً بهواه في بني أُمَيَّةَ، فمنعَهُ عطاءَه، فقال: علامَ تمنعني حَقّاً لي وأنا امرؤ مُسْلِم، ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً، ولا أخرجتُ من طاعةٍ يداً؟ قال: عليك بني أُميةَ فاطلبْ عندهم عطاءَك. قال: إذاً أَجدُهم سباطاً أكفهم، سمحةً أنفسهم، بذلاءَ لأموالهم وهَّابينَ لمجتديهم، كريمةً أعراقهم، شريفةً أصولهم زاكيةً فروعهم، قريباً من رسول الله ﷺ نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نُسبوا بأذنابٍ ولا وشائظ[1] ولا أتباع، ولا هم في قريش كفقعة القاعِ، لهم السُّؤْدَدُ في الجاهلية والملكُ في الإسلام، لا كمن لا يعدّ في عيرها ولا نفيرها ولا حكَم آباؤه في نقيرها ولا قطميرها، ليس من أحلافها المَطَّيَّبينَ ولا من ساداتها المُطْعِمين، ولا من جُودائها الوهَّابين، ولا من هاشمها المُنْتَخَبينَ، ولا من عبد شمسها المسوَّدين، وكيف تقابل الرؤوس بالأذناب؟ وأينَ النَّصُل من الجفن؟ والسِّنانُ من الزُّجِّ؟ والذُّنابَى من القُدامَى، وكيف يُفَضَّلُ الشحيحُ على الجواد، والسُّوقَةُ على الملك، والمُجيع بُخْلاً على المُطْعِم فضلاً؟

فغضبَ ابنُ الزُبير حتى ارتعدَتْ فرائصُه، وعَرِقَ جبينُه، واهتزَّ من قَرْنِه إلى قَدَمه، وامتقعَ لونُه، ثم قال له: "يا ابن البوالة على عَقِيبَيْها، ويا جلف يا جاهل أما والله لولا الحرمات الثلاث: حرمة الإسلام، وحرمة الحَرَم، وحرمة الشهرِ الحرامِ لأخذتُ الذي فيه عيناك".

ثم أمر به إلى السِّجن، فحبس به مدةً، ثم استوهبته هُذَيْل، ومَن له بين قريش خُؤُولةٌ في هُذَيْلٍ، فأطلقَه بعد سنةٍ، وأَقْسَم ألا يعطيه عطاءً مع المسلمين أبداً[2].

فلما كان عامُ الجماعة، وولي عبدُ الملك وحجَّ لقيه أبو صخرٍ، فلما رآه عبدُ الملك قَرَّبَه وأدناه، وقال له: إنه لَم يخفَ عليَّ خبرُكَ مع الملحد، ولا ضاعَ لك عندي هواك ولا موالاتك، فقال: أما إذا شفى اللهُ منه نفسي ورأيتهُ قتيلَ سيفك، وصريحَ أوليائك مصلوباً مهتوك الستر، مُفَرَّق الجمع، فما أبالي ما فاتني من الدنيا. ثم أنشد بين يديه:

عَفَت ذاتُ عرقٍ عُصْلُها فَرِئامُها ... فَدَهْناؤُها وَحْشٌ وأَجْلَى سَوامُها

---

(١) الوشائظ: الدخلاء.

(٢) الأغاني جـ٢٣ ص٢٦٩.

إلى أن يقول:

وإنَّ أمـــيــرَ المؤمنينَ الذي رَمَى ... بجأواءَ جُمْهُورٍ تسيلُ إكامُها

من أرضِ قُرى الزيتونِ مكةَ بعدَما ... غُلِبْنا عليها واستُحِلَّ حَرامُها

وإذ عاثَ فيها الناكثُون وأفْسَدُوا ... فَخِيفَتْ أقاصيها وطارَ حَمامُهَا

فشَجَّ بهم عَرْضَ الفلاةِ تَعَسُّفاً ... إذا الأرضُ أخْفَى مستواهَا سَوامُهَا (١)

ويقال: إن عبد الملك أمر له بما فاته من العطاء،ومثلَه صلةً من ماله وكساه وحمَّله(٢). وقد اشتهر بمدح الأمويين من شعراء هُذَيْل أُمية بن أبي عائذ، ويروى أنه مدح عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ بمصرَ بقصيدة طويلة يقول فيها:

إلى مَعْدِنِ الخيرِ عبدِ العزيـ ... ـزِ يَبْلُغْنَهُ ظُلَّعاً قد حَفِينا

تَرى الأدْمَ والعيسَ تحتَ المُسو ... حِ قد عُدْنَ من عَرَقِ الأينِ جُونَا

مَدَحْتُ المُمَدَّحَ عبدَ العزيـ ... ـزِ إنَّ الكرامَ هُمْ يُمْدَحُونَا

وسارَ بمِدْحَةِ عبدِ العزيـ ... ـزِ رُكْبانُ مكةَ والمُنْجِدونَا

وأنتَ امرؤٌ ماجدٌ سَيِّدٌ ... تُصَفِّي العتيقَ وتَنْفي الهَجينا (٣)

على أنه قَدْ وَرَدَ لبعضِ شعراءِ هُذَيْلٍ، أنه رَثَى عبدَ اللهِ ومُصْعَباً ابنَيْ الزُّبَيرِ، فقال عمرُو بنَ مَعْمَرٍ الهُذَليُّ من أبياتٍ له:

وكنتَ امْرأً ناصَحْتَهُ غيرَ مُؤْثِرٍ ... عليهِ ابنَ مروانَ ولا مُتَقَرِّبا

إليهِ بما تَقْذَى بهِ عينُ مُصْعَبٍ ... ولكِنَّني ناصَحْتُ في اللهِ مُصْعَبا

إلى أنْ رَمَتْهُ الحادثاتُ بسَهْمِهَا ... فللهِ سهماً ما أسَدَّ وأصْوَبَا

فإنْ يكُ هذا الدهرُ أودَى بمصعبٍ ... وأصبحَ عبدُ اللهِ شِلْواً مُلَحَّبا

فكلُّ امرئٍ حاسٍ من الموتِ جُرْعَةً ... وإن جادَ عنها جُهْدَه وتَهَيَّبا (٤)

---

(١) عصل: موضع: الجأواء: الكتيبة، الجمهور: الكثير، يقول: رمى أمير المؤمنين مكة بالرجال من أهل الشام ـ وهي أرض الزيتون ـ بعد أن عاث فيها الناكثون.

(٢) المرجع السابق جـ٢٣ ص٢٧٢.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٢ ص٥٢٠ والجون: السود، تصفي: تتخذه صفياً.

(٤) معجم الشعراء للمرزباني ص٤٤ ط الحلبي سنة ١٩٦٠م.

obeikandi.com

ولعل في هذا ما يوضح أن بعضَهم كان يوالي ابنَيْ الزُّبَيْر ، فهُذَيْل كما نَعْلَمُ قَبيلة كبيرة وموزعة فلم يكن هناك ما يمنع أن يؤيدَ أكثرُهم الأمويينَ،ويؤيدُ بعضُهم ابنّيْ الزبيرِ أو غيرهم.

ولعلَّ من الجدير بالذكر -في ختام هذا الفصل وهو مما يثيرُ العجبَ حقاً، ما روي من أن نَفَراً من هُذَيْل كانوا في الجاهلية، يَدعُون على خصومهم فيستجيب اللّهُ دعاءَهم، وينصرهم على مَنْ ظَلَمَهُم ، والمُهِمُّ في ذلك أن دعوتَهم كانت تُسْتَجابُ كلما دَعَوْا، وعلى الصُّورة والكَيْفيَّة التي كان عليها الدعاء، مما يثيرُ الدهشةَ والعَجَبَ، وسنرى كيف أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه علَّل لهذه الظاهرة الغريبة.

فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان جالساً في مَجْلسٍ مُحْتَفِلٍ، وكان عنده مالٌ كثيرٌ من مالِ الله عزَّ وجلَّ، وقد جَمَعَ الناسَ ليَقْسمَه فيهم، وبينما كان على ذلك إذا هو برجلٍ أعمَى أعرجَ، يقودُه قائدٌ له، فجعلَ يَجْبذُ قائدَه ويَعْنُفُ عليه ويُعَنِّيه، فعجبَ عُمرُ بن الخطاب من زَمانَته وشدَّته على قائده، فقال لبعض جلسائه: مَن هذا؟ فقالوا: ابنُ صَبْغاءَ البَهْزِيُّ، أما تَعْرفُه يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لستُ أَعْرِفُه، فما شأنُه؟ قالوا : إن ابن بُرَيْق بَهلَهُ، فقال: ابنُ بُرَيقٍ لَقَبٌ؟ قالوا: أَجلْ، هو عياضُ بن خُوَيْلدٍ الهُذَليُّ. فقال عُمرُ لبعضِ جلسائه: ادْعُ لي عِياضاً، وكانَ عياضٌ يومئذٍ بالمدينة. فلما أتاه قال له: حَدِّثْني حَديثك وحديث ابن صَبْغاءَ، قال: ذلك شيءٌ كان في الجاهلية، فلا تسألَني عنه اليومَ. قال: ذلك أحرَى أن تُحَدِّثنا عنه في الإسلام. قال: كان بنو صَبغاءَ رَهْطاً جَرَمَةً، وكنتُ جاراً لهم، وكانوا يَظلمونني ويُؤذونَني ، فأمْهَلْتُهم حَتَّى دخلَ الشهرُ الحرامُ، وهو ذو القَعْدَة، وكان الناسُ لا يَدْعُو بعضُهم على بعضٍ إلا فيه، فَقُمْتُ قائماً فبَهَلْتُهم فقلت:

يا رَبِّ أَدْعُـوكَ دُعـاءً جـاهِدَا	**اقْـتُلْ بَني صَبْـغـاءَ إلا واحِـدَا**
ثم اضرِبِ الرِّجْلَ فَـدَعْـهُ قـاعِـدَا	**أعْـمَى إذا قِـيـدَ يُعَنِّي القـائدا**

فاصْطُلِموا ، وبقي هذا يفعلُ ما ترَى ! قال عُمَرُ : هذا واللهِ العَجَبُ!

فقال رجلٌ آخرُ: ألا أُحَدِّثُكَ بأعْجَبَ من هذا يا أمير المؤمنين أو بمثله؟ قال:وما هو؟ قال: حَيٌّ من هّذَيْل بادوا ، وبقي منهم رَجُلٌ فحازَ مواريثَهم، ثم سارَ بها حتى جاوَرَ بني مُؤمَّلٍ-وهم حيٌّ آخرُ من هُذَيْل-وكان في عددٍ وثروةٍ فأخذ بنو مُؤَمَّل يَظْلِمونه ويَبْغُون

obeikandl.com

عليه في ماله، وجعلَ يناشدُهم اللهَ عَزَّ وجَلَّ ولا يَرْعَوُونَ في ذلك. وكان فيهم رجلٌ يقالَ له رياحٌ، ورأى ما يَصْنَعُ قَوْمُهُ بجارِهمْ، فقال: يا قَوْمِ، إنَّ هذا لا يَحِلُّ لكم في دِينكم، ولا يَجْمُلُ بكم في أعْراضكم، فانْزِعُوا عن ظُلْمِ جارِكم وابن عَمِّكُم.

فأَبَوْا ذلكَ عليه. ثم أَمْهَلَهُم حتى دخلَ الشهرُ الحرامُ، ونَزَلَ الناسُ عُكاظَ، فقام قائماً فَبَهَلَهُم وقال:

يا ربِّ أَشْقَاني بنُو مُؤَمَّلِ ... فارْمِ علَى قَفَّانِهِمْ بِمَنْكِلِ

بصخرةٍ أو عَرْضِ جَيشٍ جَحْفَلِ ... إلا رِياحاً إنَّهُ لم يَفْعَلِ

فضرب الدهرُ مَنْ ضَرَبَهُ، فحدَث أن أَقْبَلُوا حتى نَزَلُوا شِعْباً من شِعاب نَجْد، فضَربوا به الأَخْبِيَةَ، وبينما هم مُطْمَئنُّون على ذلك، إذ قَضَّ اللهُ عَزَّ وجلَّ عليهم صخرةً من سَواءِ الجَبَلِ في اللَّيلِ، فجعلتْ تَقُضُّ الحجارَةَ وجعلت الحجارةُ يقُضُّ بعضُها بعضاً، حتى مرَّتْ بأبياتهم فأرْمَدَتْهُم، إلا خِباءَ رِياحٍ لم يَدْنُ منه أي حَجَر. فقال عُمَرُ رضي الله عنه: هذا والله العَجَبُ.

فقال رجل من القوم: ألا أُحَدِّثُكَ يا أميرَ المؤمنين بأعجبَ من هذا أو بمثله؟

قال: ما هو؟ قال: قَيْسُ بن العَجْوة الهُذَلِيُّ، ظَلَمَه أبو تُقَاصِفَ الخُناعيُّ فقال: يا أبا تُقاصِفَ، أَنْصِفْني من نَفْسِكَ، وأَعْطِني الحقَّ. قال: والله لا أُنْصِفُكَ من نفسي، ولا أعطيكَ الحقَّ! فأَمْهَلَه قيسُ بنُ العَجْوَةِ حتى دخل الشهرُ الحرامُ، ونَزَلَ الناسُ عُكاظ، فقامَ قائماً فبَهَلَه وقال:

يا رَبِّ كلِّ آمنٍ وخائفِ ... وسَامعاً تَهْتافَ كُلِّ هاتفِ

إنَّ الخُناعِيَّ أبا تُقاصِفِ ... لم يُعْطِني الحقَّ ولمْ يُناصِفِ

فاقْتُلْهُ بيْنَ أهلِه الأَلاطِفِ ... في بطنِ كَرٍّ في صعيدٍ راجِفِ

بينَ قَنانِ العاذِ والنَّواصِفِ

وضربَ الدهرُ ضَرْبَتَه، فحدث أن أقبل أبو تُقاصِفَ، ومعه بنون له أربعةٌ وأخوةٌ تِسعةٌ، يَحْفِرون كراً (١) في المكانِ الذي حَدَّدَه قيسُ بنَ العَجْوَة، فكان قبراً لهم (٢).

---

(١) الكرُّ: القَليب في الوادي، فإنْ لم يكن في وادٍ فليس بكَرّ.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص ٩٠٥.

وقد عَلَّلَ عمَرُ بنُ الخطاب رضي اللهُ عنه لهذه الظاهرة الغريبة،فقال: وهَلْ تدرونَ كيفَ كانَ يُعَجّل لهم النَّصْرُ وإجابةُ الدعوة إذا دَعَوْا؟ قالوا : أنتَ أعلمُ يا أمير المؤمنين: قال:" فإني قد عَلِمْتُ أنَّ ذلكَ إنما كان يكون أنَّ القومَ لم يكونوا يرجُونَ جَنَّة ولا يخافون ناراً، ولا يعرفون بَعْثاً ولا قيامة، فكان اللهُ عزَّ وجلَّ يُعَجِّلُ لهم النصر في دُنْياهُم، ويستجيب للمظلوم على الظّالم ويدفَعُ بذلك بعضَهم عن بعضٍ، فلما جاء اللهُ عزَّ وجلَّ بالإسلام، وجاء بالبَيِّنات، أخَّرَهُم إلى يومِ الفَصْل، فقال جل وعلا: ﴿**إنَّ يومَ الفصْلِ ميقاتُهُمْ أجْمَعينَ**﴾ [الدخان: ٤٠] قالوا: صدقت يا أمير المؤمنين[١].

فنرى كيفَ أنَّهم كانوا يَدْعون على خُصومِهِمْ فيستجيبُ اللهُ لدعائهم، وينصرهم على مَنْ ظَلَمَهُم، والطَّريفُ في الأمرِ أنَّ دَعْوَتَهم كانت تُستَجابُ على الصُّورةِ أو الكيفيَّةِ التي طلبوها في الدعاء.

والحقّ أنني لا أستطيع أنْ أُخْفيَ إعجابي بسيدنا عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما اتصفَ به من صواب القول وحُسْنِ الرأي، فالقوم كانوا جاهليين لا يرجون جَنَّةً ولا يخافون ناراً، ولا يعرفون بعثاً ولا قيامةً فكان الله سبحانه يُعَجِّلُ لهم النَّصرَ على الظالم في الدنيا، ويدفعُ بعضهَم عن بعض. فلما جاءَ الإسلام وآمن الناسُ بالبعثِ والقيامةِ وجاء بالبينات، أَخَّرَهم اللهُ إلى يوم الفصل.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٢ ص٩٠٦.